# الجوهرة الفاخرة

# في بيان أصل الطريق إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة

للشيخ محمد عبد الرؤوف المناوي

المتوفى ١٠٣١ هـ

ويليه

## شرح حديث السنة المحمدية

للإمام أحمد بن إدريس الحسني

المتوفى سنة ١٢٥٣ هـ

ويليه

## الجواهر المصونة واللآلئ المكنونة

للإمام العارف بالله سيدي أبي الحسن الشاذلي

المتوفى سنة [illegible] هـ

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي



# الجوهرة الفاخرة
# في بيان أصل الطريق إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة

للشيخ محمد عبد الرؤوف المناوي

المتوفى ١٠٣١ هـ

ويليه

## شرح حديث السنة المحمدية

للإمام أحمد بن إدريس الحسني

المتوفى سنة ١٢٥٣ هـ

ويليه

## الجواهر المصونة واللآلئ المكنونة

للإمام العارف بالله سيدي أبي الحسن الشاذلي

المتوفى ٦٥٦ هـ

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

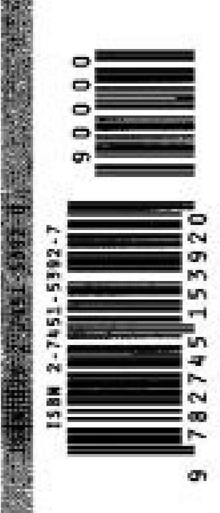
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com


| | | | |
|---|---|---|---|
| **Title** | : **Al-jawharah al-fāḫirah fī bayān aṣl al-ṭarīq ilā ma'rifat Mālik al-dunyā wal-'āḫirah** followed by: **Al-Jawāhir al-Maṣūnah wal-la'āli' al-Maknūnah** | الجوهرة الفاخرة في بيان أصل الطريق إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة ويليه: شرح حديث السنة المحمدية ويليه: الجواهر المصونة واللآلئ المكنونة | الكتاب : |
| **Classification:** | Sufism | : تصوف | التصنيف |
| **Author** | : Muḥammad 'Abdul-Ra'ūf al-Munāwi and: Aḥmad ben Idrīs al-Ḥasani and: Sīdi Abu al-Ḥasan al-Šāḏili | : الشيخ محمد عبدالرؤوف المناوي والإمام أحمد بن إدريس الحسني والإمام أبو الحسن الشاذلي | المؤلف |
| **Editor** | : Dr. 'Āṣim Ibrāhīm al-Kayyāli | : د. عاصم إبراهيم الكيالي | المحقق |
| **Publisher** | : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah | : دار الكتب العلميــــة – بيروت | الناشر |
| **Pages** | : 168 | 168 : | عدد الصفحات |
| **Size** | : 17*24 | 17*24 : | قياس الصفحات |
| **Year** | : 2010 | 2010 : | سنة الطباعة |
| **Printed in** | : Lebanon | : لبنــــان | بلد الطباعة |
| **Edition** | : 1st | : الأولى | الطبعة |








ISBN 2-7451-5392-7



## تقديم

بسم الله الأحد بذاته، والواحد بأسمائه وصفاته، الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا انكشاف، والباطن بلا خفاء، واجب الوجود، القائم بنفسه، المستغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه، ليس كمثله شيء من حيث هويته، ومتصف بكل كمال من حيث صفاته المعنوية؛ كالقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، ومن حيث صفاته المعنوية؛ ككونه تعالى قادراً ومريداً وعليماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً. المنزه عن كل نقص كالعدم والحدوث والفناء والمماثلة للحوادث والافتقار والتعدد والعجز والكراهة والجهل والصمم والعمى والبكم، والمنزه عن كونه تعالى عاجزاً وكارهاً وجاهلاً وميتاً وأصم وأعمى وأبكماً.

والحمد لله الذي خلق الإنسان على صورته في أحسن تقويم بيدي الجلال والجمال، وحمَّله أمانة التوحيد، وجعله خليفة في أرضه وخاتماً على مملكته.

والصلاة والسلام على عبده الكامل؛ الأول بروحه والآخر بجسده، المبعوث رحمة مهداة للعالمين، من الكنزية الذاتية المخفية الإطلاقية الأزلية إلى أبد الآخرية الصفاتية الشهادية التشبيهية الأبدية، في عوالم الملك والملكوت الأنفسية والآفاقية. والقدوة الحسنة للأنموذج الإنساني في أرض ناسوت جسمه ونفسه، وملكوت لاهوت قلبه وعقله، وجبروت سر روحه وحقيقته بما بعث له به من الدين الكامل الإسلام والإيمان والإحسان، إظهاراً للحقائق والتعينات العلمية على وفق الاستعدادات والقوابل الإمكانية القدرية الحكمية.

وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس سراب الأغيار المتحققين بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمـٰن: 26-27] وعلى أصحابه الأخيار، المقتدين بأنوار حبيبهم المختار، بما بعث به من الدين الكامل بمقتضى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المَائدة: 3].. وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: 29].

وبعد فإن الله خلق الإنسان لمعرفته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: 56] فسر حبر الأمة عبد الله بن عباس قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ بـ «ليعرفون» ويكون الحق تعالى عبر عن الغاية التي هي المعرفة بالوسيلة التي هي العبادة. وهذه المعرفة تتحقق بتزكية النفس وتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل. قال الإمام الغزالي: إنّ تزكية النفس فرض عين على كل مكلف إذ لا يخلو أحد من عيب خُلُقي أو مرض [نفسي] إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكما وضع علماء الشريعة العلوم المتعلقة بإصلاح الظاهر وضع علماء الإحسان أو التصوف العلوم المتعلقة بإصلاح الباطن من نفس وقلب، وصنفوا فيها الكتب لتكون دليلاً للسائر إلى الله تعالى يستدل بها في طريق معرفة الله تعالى، ومن هذه الكتب كتاب (**الجوهرة الفاخرة في بيان أصل الطريق إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة**) لمربي المريدين وقدوة الواصلين الشيخ عبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة 1031 هـ. ويليه كتاب شرح حديث السنَّة المحمدية للقطب الفرداني الشيخ أحمد بن إدريس الحسني قدّس سرُّه.

هذا وإتماماً للفائدة أتبعناهما بكتاب (**الجواهر المصونة واللآلىء المكنونة**) في خصائص وخواص الذكر بقول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: 173] لشيخ الطريقة الشاذلية القطب الرباني والمحقق الصمداني الإمام أبي الحسن الشاذلي قدس سرُّه المتوفى سنة 656 هجرية.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوّف الإسلامي، تساعد المُريد على الاطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية

التحقق بأحكام مقام الإسلام، وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار ومقامات الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ المُلْك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

كما ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا به على لسان نبيّه ﷺ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: 21] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: 3-4] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النِّسَاء: 69] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القِيَامَة: 22-23].

**كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي**

**الحسيني الشاذلي الدرقاوي**

# الشيخ عبد الرءوف المناوي

هو شيخ الإسلام، علامة الأنام، خاتمة المؤلفين والمحدثين، زين الملة والدين، الشيخ عبد الرءوف المناوي.

ولد سنة 952هـ.

أخذ العلم عن الشمس الرملي، وعلي المقدسي، ومحمد البكري، والنجم الغيطي، والطبلاوي، والشيخ الإمام سيدي عبد الوهاب الشعراني، والشيخ محمد التركي الخلوتي.

وأخذ عنه: سليمان البابلي، وإبراهيم الطاشكندي، وأحمد الكلبي.

توفي يوم الخميس 23/ صفر/ 1031هـ.

وصُلي عليه بجامع الأزهر يوم الجمعة، ودفن بجانب زاويته التي أنشأها بخط المقسم المبارك، فيما بين زاويتي سيدي الشيخ أحمد الزاهد، والشيخ مدين الأشموني.

**ومن مصنفاته:**

- فيض القدير شرح الجامع الصغير.
- فتح الرءوف القدير شرح الجامع الصغير.
- التيسير شرح الجامع الصغير.
- شرح الشمائل الترمذية.
- شرح الباب الأول من كتاب الشفا لعياض.
- اليواقيت والدرر شرح نخبة ابن حجر.
- كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق.

- المجموع الفائق من حديث خير الخلائق.
- الجامع الأزهر في حديث النبي الأنور.
- التبيان في فضائل النصف من شعبان.
- إسفار البدر عن ليلة القدر.
- شرح الأربعين النواوية.
- نخبة الابتهاج في فوائد الإسراء والمعراج.
- شرح ألفية السيرة للعراقي.
- شرح الخصائص الصغرى للسيوطي.
- الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية.
- الأدعية المأثورة بالأحاديث المشهورة.
- المطالب العلية في الأدعية الزهية.
- كنز الطالبين لأوراد الأولياء والمسلكين.
- إتحاف الناسك بأذكار السفر والمناسك.
- بغية الطالبين لمعرفة اصطلاح المحدثين.
- تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف.
- بلوغ الأمل في الألغاز والحيل.
- النبذة السنية في علم المواريث الفرضية.
- ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس.
- عماد البلاغة في أسئلة أولي البراعة.
- التوقيف على مهمات التعاريف.
- مختصر تسهيل المقاصد لزوار المساجد للأقفهسي.
- شرح الورقات للجويني.
- شرح التحرير لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري.
- شرح العباب لابن حجر الهيتمي.

- شرح زبد ابن أرسلان.
- شرح هداية الطالب لأبي الحسن البكري.
- نزهة الحاوي بفتاوي الشرف المناوي.
- شرح الآجرومية.
- شرح جزء من القاموس.
- الصفوة بمناقب آل البيت.
- شرح منازل السائرين للهروي.
- مناقب السيدة فاطمة.
- مناقب الشافعي.
- مناقب الشيخ الأكبر.
- شرح الحكم العطائية.
- شرح المواقف للنفري.
- شرح العينية لابن سينا.
- شرح رسالة التصوف لابن سينا.
- الجواهر المضية في الآداب السلطانية.
- حاشية على شرح العقائد النسفية للسعد.
- شرح نظم العقائد لابن أبي شريف.
- مختصر تمهيد الأسنوي.
- بغية المحتاج في الطب والعلاج.
- الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود.
- شرح منظومة ابن العماد في آداب الأكل.
- شرح زوائد الجامع الصغير.
- شرح المنهج للشيخ زكريا.
- شرح هداية الناصح للشيخ أحمد الزاهد.

- شرح مختصر المزني.
- مختصر المصباح في علم المفتاح للجلدكي.
- شرح تحفة ابن الهائم في الفرائض.
- الشمعة المضية في علم العربية.
- الروضة الزهية بالفتاوى السمهودية.
- شرح البهجة الوردية للشيخ زكريا.
- مجمع الفوائد بفتاوى الأئمة الأماجد.
- منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطواعين.
- رسالة في البسملة.
- تاريخ الخلفاء.
- شرح مسند الشهاب.
- ترتيب الشهاب للقضاعي.
- الكواكب الصغرى.

وغير ذلك كثير.

وانظر ترجمته في:

- خلاصة الأثر للمحبي (2/ 412).
- فهرس الفهارس (2/ 560).
- الأعلام للزركلي (6/ 204).

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إلَّا ما جعَلْتَهُ سَهْلاً.

الحَمْدُ للهِ تَعالى وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وآله وصحبه الحنفا.

وبعد: فيقول الفقير الحقير، القائم على قدم التقصير، عبد الرؤوف المناوي: هذه لُقَطَةُ عجلان، وعجالةُ وسنَان، سايَرْتُ بها الرسالة التي كتبها العبد الصالح الشيخ أحمد العلواني الحموي في أساس طريق القوم، ضَمَّنْتُها فوائد نفيسة التقطتها من كلام الأئمة الأنجاب، وفرائد عزيزة قد لا تراها مجموعة في كتاب، من تَأَمَّلَها دَخَلت عليه المسرَّة من كل باب، ومن تدبرها قال: إن هذا لشيء عُجاب، وسميتها:

## الجوهرة الفاخرة في بيان أصل الطريق
## إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة

وختمتها بوصية نافعة، هي لأحكام السلوك جامعة، وبه المستعان، وعليه التكلان.

* * *

قال رحمه الله: **(أساس الطريق تقرير معنى لا إله إلا الله في البال)**.

فإنه ما لم يَثْبُت وجود صانع منفرد بالألوهية حي مريد قادر عالم مرسل للرسل منزل للكتب لم يتصور الطريق الموصل إلى المعرفة، فأساس الطريق هو كلمة التوحيد وبها قيام العالم العلوي والسفلي. قال ﷺ: «**أُسِّست السمٰوات السبع والأرضون السبع على: قل هو الله أحد**»[1] أشار بذلك إلى أن التوحيد أصل لكل شيء في عالم الغيب والشهادة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] ولولا الوحدانية لما تكونت السمٰوات والأرض على هذا الوجه البديع المتقن المحكم، ولكانت فاسدة كبناء بغير أساس.

## [أساس الطريق]

**فأساس الطريق** القطع والجزم بنفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، فأول شيء يجب على المبتدىء في السلوك أنه كلما قال: لا إله إلا الله أن لا يكون في قلبه شيء غير الله إلا ونفاه من قلبه، ومتى التفت إليه في حال ذكره فقد أنزله منزلة الإله من نفسه، فهذه أدنى درجات الذكر. قال تعالى ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: 43] ـ وقال ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] وقال ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: 60] وقال ﷺ: «**تَعِسَ عبد الدنيا تَعِسَ عبد الدرهم**»[2] وإن كان الدينار والدرهم لا يعبدان بركوع ولا سجود، وإنما ذلك بالتفات القلب إليهما فلا يصح منه لا إله إلا الله إلا بنفي ما في نفسه وقلبه مما سوى الله تعالى.

ومن امتلأ قلبه بصور المحسوسات لو قال: لا إله إلا الله ألف مرة قَلَّما يشعر قلبه بمعناها، وإذا فَرّغَ القلب من غير الله لو قال مرة واحدة فإنه يجد

---

(1) رواه الحسن بن أبي طالب البغدادي الخلال في من فضائل سورة الإخلاص، برقم (39) [1/ 84] من كلام كعب بلفظ: «إن الأرضين السبع أسست على قل هو الله أحد». وأورده المناوي في فيض القدير، حرف الهمزة [1/ 506].

(2) رواه الطبراني بلفظ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن منع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا أنتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه..» الحديث رقم (2595) [3/ 94] ورواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (2363) [2/ 64].

من اللذة ما لا يستطيع اللسان وصفه.

وتحقُّق العبد بلا إله إلا الله حالة من أحوال القلب لا يعبر عنها اللسان ولا يقوم بها جنَان. ولا إله إلا الله بإخلاص هي مفتاح حقائق القلوب ترقي السالكين إلى عوالم الغيوب. ومن الناس من اختار موالاة الذكر بحيث تكون الكلمتان كالكلمة الواحدة لا يقع بينهما تخلل خارجي ولا ذهني لئلا يأخذ الشيطان نصيبه منه، فإنه في هذا الموضع بالمرصاد لعلمه بضعف السالك عن سلوك هذه الأودية لبُعدها عن عادته، لا سيما المبتدىء في السلوك. قالوا: وهذا أسرع فتحًا للقلب وتقريباً من الرب. وقال بعضهم: تطويل المدة أولى، لأن الذاكر في زمن المدّ يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد ثم ينفيها، ويُعْقِبُ ذلك بإلا الله، فهو أقرب إلى الإخلاص. وقيل ترك المدّ أولى، لأنه ربما مات في زمان التلفظ بلا إله قبل الوصول إلى إلا الله. والجمهور على أنه لا يمد لا، ويمد الله.

## [أنواع الذكر]

واعلم أن **أنواع الذكر** كثيرة، وأفضلها لا إله إلا الله، قال صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله**»[1] إذ لا يصح الإيمان إلا به؛ ولأن فيه إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه، وليس ذا في سواه من الأذكار؛ ولأن للتهليل تأثيرًا في تطهير الباطن عن الأوصاف الذميمة التي هي معبودات في الظاهر ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23] فيفيد نفي عموم الآلهة بقوله: لا إله ويثبت الواحد بقوله: إلا الله، ويعيد الذكر من ظاهر لسانه إلى باطن قلبه فيتمكن ويستولي على جوارحه، ويجد حلاوة هذا من ذاق. وقال بعض العارفين: إنما كانت أفضل لأنها كلمة التوحيد، والتوحيد لا يماثله شيء؛ إذ لو ماثله شيء ما كان واحدًا بل اثنين فصاعدًا، فما ثَمَّ ما يزنه إلا المعادل والمماثل، ولا معادل ولا مماثل، فذلك هو المانع لـ "لا إله إلا الله" أن تدخل الميزان يوم القيامة؛ فإن

(1) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (1834) [1/ 676] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، حديث رقم (3383) [5/ 462] ورواه غيرهما.

الشرك الذي يقابل التوحيد لا يصح وجوده من العبد مع وجود التوحيد؛ فإن الإنسان إما مشرك وإما موحد، فلا يزن التوحيد إلا الشرك ولا يجتمعان في ميزان أبدًا، فعليك بالذكر بها؛ فإنه الذكر الأقوى وله النور الأضوى والمكانة الزلفى، ولا يشعر بذلك إلا من لزمه وعمل به حتى أحكمه وحكّمه.

## [فوائد الذكر بكلمة التوحيد]

**واعلم أن للذكر بكلمة التوحيد فوائد:**

**منها:** أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكمده ويمنعه، ويرضي الرحمن ويسخط الشيطان، ويزيل الهم عن القلب والغم، ويجلب الفرح والسرور، ويذهب الترح والشرور، ويقوي القلب والبدن، ويصلح السر والعلن، ويبهج القلب والوجه وينوّرهما، ويجلب الرزق وييسره، ويكسو الذاكر مهابة، ويلهَم به في أمر صوابه، ودوامه للمحبة سببٌ من الأسباب، وهو لها من أعظم الأبواب، ويورث المراقبة الموصلة لمقام الإحسان الذي يعبد اللهَ العبدُ كأنه بالعيان ويورث الإنابة، فمن أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه الرجوع إليه في سائر أمره، ويورث القرب من الرب، ويفتح باب المعرفة في القلب، ويورث العبد إجلالًا وهيبة لربه، والغافل حجاب الغفلة رتيق على قلبه ويورث ذكر الله للعبد، وهو أعز شرف وأعلى مجد، وبه يحيي قلب البشر كما يحْيا الزرع بوابل المطر، وهو قوت الأرواح، كما أن الغذاء قوت الأشباح، وجلاء القلب من صداه الذي هو الغفلة واتباع هواه، وهو للفكر كالسراج الهادي في الظلمة إلى المنهاج، ويحبط الذنوب والخطيئات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114] ويزيل الاستيحاش الحاصل بين الرب وبين العبد الغافل، ومن تعرّف إلى الله في الرخاء بذكره تعرّف إليه في الشدةِ ببرِّه، ولا عمل من الأعمال أنجى منه من عذاب ذي الجلال، وهو للعبد سبب لنزول السكينة عليه وحفوف الملائكة به ونزولها لديه وغشيان الرحمة، وما أجل ذلك من نعمة، وهو لِلِّسان شاغل عن الغيبة والكذب وكلّ باطل.

والذاكر لا يشقى جليسه ويسعد به أنيسه، ومجلسه لا يكون عليه حسرة يوم القيامة، ولا يكون عليه تِرَة ولا ندامة. والذكر مع البكاء والعويل سبب

عن المسألة شاغل أُعْطي أفضل ما أعطِي سائل، ويَتَيَسَّرُ على العبد في عموم الأوقات وأكثر الحالات، وحركة الذكر على اللسان أيسر حركة على الإنسان، وهو غراس الجنان. فقد قال سيد ولد عدنان: «**من قال لا إله إلا الله غرست له بها نخلة في الجنة**»[1] وسبب للعتق من النيران، وأمان من النسيان في الدنيا ودار الهوان، وشاهده ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152] كما جاء في القرآن.

ونسيان الله للعباد ينسيهم أنفسهم وذلك غاية الفساد، وهو للعبد في دنياه وقبره وحشره ونشره، وهو رأس الأصول وباب الوصول، ومنشور الولاية الذي به على النفس والهوى يصول، وإذا رسخ في القلب ووقع وصار اللسان كله كالتبع استغنى الذاكر وارتقى وارتفع، والغافل وإن كان ذا مال فهو فقير، أو ذا سلطان فهو حقير.

ويجمع على الذاكر قلبه المتفرق، وشمل إرادته وعزمه المتمزق، ويفرق حزنه وذنبه وجند الشيطان وحزبه، ويقرّب من قلبه الآخرة، ويبعد عن قلبه الدنيا وإن كانت حاضرة، وينبّه القلب الغافل بترك اللهو والباطل، ويستدرك ما فات ويستعد لما هو آت، وهو شجرة ثمرتها المعارف ورأس مال كل عارف، والله مع الذاكر بالقرب والولاية والمحبة والتوفيق والحماية، ويعدل عتق الرقاب والجهاد ومشقاته الصعاب، والقتل في سبيل الله والعطب وإنفاق الورِق والذهب، وهو من الشكر رأسُه وأصله وأساسه، ومن لم يزل لسانه رطبًا بذكره واتقى الله في نهيه وأمره أوجب له دخول جنة الأحباب والاقتراب من رب الأرباب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13] ويدخل الجنة وهو يضحك ويتبسم، ويتقلب فيها ويتنعم، ويذهب من القلب القساوة ويورثه اللين والطراوة، والغفلة للقلب داء ومرض، والذكر شفاء له من كل داء وعرض، كما قيل:

---

(1) ورد بلفظ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة». رواه الترمذي في سننه، حديث رقم (4 ـ 3465) [5/ 511] ورواه أبو يعلى في المسند برقم (2233) [4/ 165] ورواه غيرهما.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانًا فننتكِسُ[1]

وهو أصل موالاة الله وأسُّها، والغفلة أصل معاداته ورأسُها، وإذا استولت الغفلة على العبد ردته إلى معاداة الله أقبح ردّ، وهو رافع للنقم، ودافع وجالب للنعم وكل نافع، وموجب لصلاة الله عليه والملائكة الكرام، فيخرج من الظلمات إلى النور ويدخل دار السلام، ومجالسُ الذكر رياض الجنان، والرتع فيها يرضي الرحمٰن، والله تعالى يباهي بالذاكرين ملائكة السماء، فمنزلته من العبادات أرفع وأسمى، وأفضل العمَّال أكثرهم لله ذكرًا في سائر الأحوال، وهو ينوب عن سائر الأعمال، سواء أكانت متعلقةً بمال أو بغير مال، ويقوي الجوارح، ويسهل العمل الصالح، ويُيَسِّر الأمور الصعاب، ويفتح مغلق الأبواب، ويخفف المشقة، وهو أمنٌ للخائف، ونجاة من المتالف، والذاكر من العمال في ميدان السّباق إلى حيازة قصب السبق سبَّاق:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرسًا ركبت أم حمار[2]

وهو سببٌ لتصديق الرب لعبده، لأنه مخبر عن جلاله وجماله وحمده، وَدُوْرُ الجنة بالذكر تبنى، فالغافل لا يبنى له في الجنة مغنى، والأذكار سَدٌّ بين العبد وبين النار، فإن كان الذكر مستمرا دائمًا كان السد جيدًا محكمًا وإلا كان واهيًا منخرمًا، الذكر نار لا تبقي ولا تذر، فإذا دخل بيتًا لا يترك فيه عينًا ولا أثر، ويذهب الأجزاء النابتة من الطعام الزائدة على الشبع أو الحرام، ويذهب الظلمات وينبت الأنوار الساطعات.

والملائكة تستغفر للعبد إذا لازم الذكر والحمد، والبقاع والجبال تباهي

---

(1) أحد بيتين من البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن) للشاعر الصوفي عمر الشيخ عمر اليافي المولود بمدينة يافا (فلسطين) سنة 1173 والمتوفى بدمشق سنة 1233 هجرية. والبيت الثاني هو:

وإن عزمنا على تذكار غيركم لم نستطع واعترانا العيّ والخرس

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) أحد بيتين لبديع الزمان الهمداني من بحر الرجز: (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) والبيت الثاني هو:

وَقُلتُ كمَّا احتفل المضمارُ واحتفت الأسماع والأبصار

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

بمن يذكر الله عليها من الرجال، وهو سيمة المؤمن الشاكر، والمنافق قليلًا ما يوجد ذاكر، ومن ألهاه ماله وولده عن الذكر فهو خاسر.

وللذكر لذَّات أجلّ من لذة المطعومات والمشروبات، ووجه الذاكر وقلبه يكسى في الدنيا نضرةً وسرورًا، وفي الآخرة وجهه أشد بياضًا من القمر ونورًا، وتشهد له البقاع كما تشهد لكل عامل عصى أو أطاع، وهو يرفع العامل إلى أعلى الدرجات، ويوصل إلى أعلى المقامات.

والذاكر حي وإن مات، والغافل وإن كان حيًّا فهو من جملة الأموات، ويورث الرّيَّ من العطش عند الموت، والأمن مِنَ المخاوف عند خوف الفوت.

والذاكر في الغافلين كبيت مظلم فيه مصباح، والغافلون كليل مظلم ليس له صباح، والذاكر إن شغله عن الذكر شاغل فقد تعرض لعقوبة إن كان ذاك غافل، فمن جلس مع الملك بغير أدب أسلمه ذلك إلى العطب، والحضور في الذكر ساعة حميّة عن تخليط المعاصي بالطاعة، والحمية إن كانت قليلة فلها منفعة جليلة ولعظم فوائد الذكر وعموم عوائده أمر الله به وأثنى عليه وأمر بالإكثار منه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾ [الأحزاب: 41] وقال ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: 45] وقال ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: 152] وقال ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ [المزمل: ٨] وقال: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**»[1]. وقال: «**لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى**»[2] وقال ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: هي حِلقَ الذكر**»[3] رواه الإمام أحمد[4]. وقال: «**اذكر الله فإنه**

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (584) [1/ 240] ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (4446) [3/ 168] ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (391) [20/ 182].

(3) رواه أبو يعلى في المسند، عن أنس بن مالك برقم (3432) [6/ 155] ورواه الترمذي في سننه، عن أبي هريرة، حديث رقم (3509) [5/ 532].

(4) في المسند عن أنس بن مالك برقم (12545) [3/ 150].

**عونٌ لك على ما تطلب**»[1] رواه ابن عساكر[2]. وقال: «**اذكروا الله ذكرًا حتى يقول المنافقون إنكم تراءون**» رواه الطبراني[3]. وقال: «**اذكروا الله ذكرًا خاملًا، قيل: وما الخامل؟ قال: الذكر الخفي**»[4] رواه ابن المبارك. وقال: «**ذاكرُ اللهِ في الغافلين مثل الذي يقاتل عن الفارّين، وذاكر الله في الغافلين كالمصباح في البيت المظلم، وذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الشجر الذي قد تحاتّ من الصريف، وذاكر الله في الغافلين يغفر الله له بعدد كل فصيح وأعجم**»[5] رواه أبو نعيم[5]. وقال: «**أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مُراءُون**»[6] رواه البيهقي وغيره. وقال: «**ذاكر الله خاليًا كمبارز إلى الكفار من بين الصفوف خاليا**» رواه الديلمي[7] وغيره. وقال: «**ذكر الله شفاء القلوب**»[8] رواه الديلمي،[7] وقال: «**الذكر نعمة من الله فأدُّوا شكرها**» رواه الديلمي[9] وقال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق وخير لكم من أن تَلْقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ ذكرُ الله**» رواه الترمذي[10] وغيره، وقال: «**من أكثر ذكر الله فقد بريء من النفاق**» رواه الطبراني[11]. وقال: «**من أكثر ذكر الله أحبَّه الله تعالى**» رواه الديلمي[12] وقال: «**سبق المفردون، قالوا: وما المفردون؟ قال: المستهترون في ذكر الله**»[13] أي الذين ولعوا به ولم يشتغلوا بغيره «**يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافًا**» رواه الترمذي وغيره[13]، وقال «**الذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيف في**

---

(1) (2) أورده السيوطي في الدر المنثور، سورة الأنفال، آية: (45) [4/ 75].

(3) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم، حديث أبي زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه، [1/ 444] وعزاه إلى أبي نعيم في ا لحلية من حديث ابن عباس مرفوعاً.

(4) أورده المناوي في فيض القدير، حرف الهمزة [1/ 456].

(5) في الحلية، [ترجمة] عون بن عبد الله بن عتبة، [4/ 241] ورواه البزار في المسند بدون شطره الأخير، برقم (1659) [5/ 166].

(6) هذا الحديث سبق تخريجه.

(7) في الفردوس بمأثور الخطاب، عن ابن عباس برقم (3142) [2/ 243].

(8) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1345) [1/ 505].

(9) أورده المناوي في فيض القدير، فصل في المحلى بأل. . ، حديث رقم [3/ 569].

(10) باب ما جاء في فضل الذكر، حديث رقم (3377) [5/ 459].

(11) رواه المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (6931) [7/ 86].

(12) ورواه أبو بكر عبد الله القرشي، حديث رقم (330) [1/ 99].

(13) وأورده الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال، من اسمه خليفة [3/ 76].

**سبيل الله، ومن إعطاء المال سخاء»** رواه الدارقطني[1].

قال الغزالي: وقد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال، لكن له قشور ثلاثة بعضها أقرب إلى اللب من بعض، وله لبّ وراء القشور؛ فالقشر الأعلى ذكر اللسان فقط؛ **والثاني**: ذكر القلب إذا احتاج إلى مرافقته حتى يحضر مع الذكر، ولو ترك وظيفة لاسترسل في أودية الأفكار؛ **والثالث**: أن يتمكن الذكر من القلب ويستولي عليه بحيث لا يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه لغيره؛ **الرابع**: وهو اللباب أن يستمكن المذكور من القلب وينمحي الذكر ويخفى وهو اللباب المطلوب، وذلك بأن لا يلتفت القلب إلى الذكر ولا إلى القلب بل يستغرق في المذكور جملة، وهذا هو المعبر عنه بالفناء، وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظواهر جوارحه، لا من الأشياء الخارجة عنه ولا من العوارض الباطنة فيه بل يغيب عن جميع ذلك ذاهبًا إلى ربه أوّلاً ثم ذاهبًا فيه آخرًا، وإن خطر له أنه في أثناء ذلك فنى عن نفسه بالكليات فذاك شوبٌ وكدورة، بل الكمال في أن تفنى نفسه ويفنى عن الفناء أيضًا، والفناء عن الفناء غاية الفناء، وهذا قد يظنه الفقيه الرسمي طامات غير معقولة ولا كذلك؛ وإنما سمّوا هذه الحالة فناء وإن كان الشخص والطلل باقيًا، لأن الأشخاص والأطلال بل سائر المحسوسات ليس لها حقيقة الوجود بل الوجود الحقيقي لعالم الأمر والملكوت، والقلب من عالم الأمر، والقوالب من عالم الخلق، والمراد بالقلب اللطيفة الذاكرة العارفة التي هي مهبط الأنوار الإلهية، والعالم الجسماني ليس له وجود حقيقي، بل هو من ذلك العالم كالظل من الأجسام، وليس لظل الإنسان حقيقة الإنسان.

وقد أفهمناك ما أرادوه بالفناء فدع عنك الغفلة والتكذيب بما لم تحط به علمًا .

وإذا فهمت الفناء في المذكور، فاعلم أن أول الطريق هو الذهاب إلى الله تعالى، وإنما الهُدَى بَعْدُ: أعني الهُدَى إليه؛ فأول الأمر ذهاب إلى الله ثم

---

(1) وروى ابن أبي شيبة في المصنف في ثواب ذكر الله عز وجل، حديث رقم (29456) [6/ 58]، وابن المبارك في الزهد، حديث رقم (1116) [1/ 394].

ذهاب فيه، وذلك هو الفناء، والاستغراق فيه، ولكن هذا الاستغراق أوَّلاً لا يكون كبرق خاطف قلَّما يثبت؛ فإن دام صار عادة راسخة وهيئة ثابتة، فيعرج به إلى العالم الأعلى، ويطالع الوجوب الحقيقي الأصفى. وينطبع فيه وجه الملكوت، ويتجلى له قدس اللاهوت؛ وأول ما يتمثل له من ذلك العالم الجواهر الملكية وأرواح الأنبياء والأولياء في صور جميلة، ويفيض الله بوساطتها بعض الحقائق وذلك في البداية إلى أن تعلوَ درجته عن المثال، فيكافح بصريح الحق في كل شيء؛ فإذا رد إلى هذا العالم المجادل الذي هو كالظلال نظر إلى الخلق نظر مترحم عليهم لحرمانهم من مطالعة جمال حضرة القدس.

فهذه ثمرة لباب الذكر، وإنما مبدؤها ذكر اللسان ثم ذكر القلب تكلفًا ثم ذكر القلب طبعًا، ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر، وهذا سر قول المصطفى: **«من أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى»**[1] بل سر قوله **«يفضل الذكر الخفي على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفًا»**[2].

وإنما اختصت هذه المكاشفات بحيال الفناء لأن الحواس وعوارض النفس وشهواتها حادثة إلى هذا العالم المحسوس عالم الزور والغرور، ولذلك ينكشف صريح الحق بالموت لبطلان سلطان الحواس والخيالات بالتولية بوجه القلب عن العالم السفلي؛ فإن قصر عنك سلطان الحواس بالنوم طولعت بشيء من الغيب على قدر استعدادك وقبولك وهمتك، لكن بمثال يحتاج إلى التعبير والخيال لا يفتر في النوم وإن ركدت الحواس فلذلك يصفو الاطلاع ولا يخلو من شوب مثال.

وأما **الفناء** فعبارة عن حالة تركد فيها الحواس ولا يسكن فيه الخيال فلا

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، في ثواب ذكر الله عز وجل، حديث رقم (29457) [6/ 58] ورواه الطبراني في المعجم، حديث رقم (326) [20/ 157] ورواه غيرهما.

(2) رواه أبو يعلى في المسند عن السيدة عائشة، رضي الله عنهما، حديث رقم (4738) [8/ 182] ورواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (2353) [2/ 63].

يشوش، فإن بقيت في الخيال بقية مغلوبة لم يؤثر إلا في محاكاة ما ينجلي من عالم القدس حتى تتمثل الأنبياء والملائكة والأرواح المقدسة في قوالب الخيال.

فهذه أمور ذكرناها لتكون متشوقًا إلى أن تصير من أهل الذوق بها؛ فإن لم يمكن فمن أهل الإيمان بها؛ وإياك أن تكون من المنكرين لها فتلقى العذاب الأليم.

وهل قراءة القرآن أفضل أم الذكر؟ فيه تفصيل ذكره الغزالي، وهو أن قراءة القرآن أفضل للخلق كلهم إلا الذاهب إلى الله؛ فإن الذكر له أفضل في جميع أحواله في بدايته وفي بعض أحواله في نهايته؛ فإن القرآن هو المشتمل على صنوف المعارف والأحوال والإرشاد إلى الطريق، فما دام العبد مفتقراً إلى تهذيب الأخلاق وتحصيل المعارف فالقراءة له أولى؛ فإن جاوز ذلك واستولى الذكر على القلب بحيث يرجى له أن يفضي به ذلك إلى الاستغراق فدوام الذكر له أولى؛ فإن القرآن يجاذب خاطره ويسرح به في رياض الجنة.

والمريد الذاهب إلى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة ورياضها؛ بل ينبغي أن يجعل همَّه همًّا واحداً و ذِكره ذِكرًا واحداً، حتى يدرك درجة الفناء والاستغراق، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45] وكذلك من ينتهي إلى درجة الاستغراق ولا يدوم ولا يثبت؛ فإذا رُدَّ إلى نفسه فقد نفعته تلاوة القرآن، وهذه حالة نادرة كالكبريت الأحمر يُتحدث به ولا يوجد، فتكون تلاوة القرآن أفضل مطلقًا.

* * *

ثم قال رحمه الله تعالى: (**قال الله تعالى:** ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19] **فالعلم بنفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له هو معنى قولنا: تقريرمعنى لا إله إلا الله في البال، فلا يكون في قلبك اعتقاد استحقاق عُبودية لغير الله**).

ثم أول واجب عليه بعد ذلك أن يحصِّل من الأصول الدينيَّة ما يصح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة، وما يحترز به عن شبه المبتدعة من

المجسّمة والمشّبهة والمعطّلة والحلولية والاتحادية ومنكري العلم بالجزئيات والجبرية والقدرية والوجودية والتناسخية وسائر فرق الزيغ والضلال، وذلك بأن يعتقد أنه تعالى في ذاته واحد لا شريك له ولا مثل له، صمد لا ضد له، متوحد لا نِدَّ له.

وأنه قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بانقضاء تصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

وأنه ليس بجسم مصوّر ولا جوهر محدود مقدر؛ وأنه لا يماثل الأجسام في التقدير ولا في قبول الانقسام؛ وأنه ليس بجوهر ولا تحله الأعراض؛ بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ، وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تكتنفه السمٰوات.

وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، منزهًا عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته يحملون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقيَّة لا تزيد تقربًا إلى العرش والسما، بل هو رفيع الدرجات على العرش، كما أنه رفيع الدرجات على الثرى.

وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد؛ إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام؛ كما لا يماثل ذاته ذات الأجسام؛ وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، تعالى أن يحويه مكان، كما بَعُدَ أن يحدّه زمان؛ بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان.

وأنه بائنٌ بصفاته من خلقه، ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته؛ وأنه تقدس عن التغيير والانتقال، لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض؛ بل لا يزال في نعوت جلاله متنزهًا عن الزوال في صفات كماله مستغنٍ عن زيادة الاستكمال وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مَرْئِيُّ الذات بالأبصار نعمةً منه

ولطفًا بالأبرار في دار القرار وإتمامًا للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

وأنه حيٌّ قادرٌ جبارٌ قاهرٌ، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت.

وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت، له القدرة والخلق والأمر، السمٰوات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون في قبضته؛ فإنه المنفرد بالاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلائق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا تغرب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

وأنه عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجرى في تخوم الأرضين إلى أعلى السمٰوات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السمٰوات؛ بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جوف الهوى، ويعلم السرّ وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلي، لم يزل موصوفًا به في أزل الأزل، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالخلق والانتقال.

وأنه مريد للكائنات مريد للحادثات فلا يجري في الملك والملكوت قليل ولا كثير ولا صغير أو كبير، خيرٌ أو شرٌّ، نفعٌ أو ضرٌّ، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوزٌ أو خُسْر، زيادةٌ أو نقصان، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدرته ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لم يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبتدىء المعيد الفعال لما يريد.

لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوّة له على طاعته إلا بمعونته وإرادته؛ لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا من العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته عجزوا عنه؛وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفًا بها مريدًا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدّرها، فأوجدها في أوقاتها كما أراد في أزله من غير تقدم ولا تأخر؛ بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبديل ولا تغيير، دبَّر الأمور لا بترتيب أفكار

وتربص زمان، فلذلك لا يشغله شأن عن شأن، شؤونٌ يبديها ولا يبتديها، يرفع أقوامًا ويضع آخرين.

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مَرْئي وإن دقَّ، لا يحجب سمعَه بُعْدٌ ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة ولا آذان، كما يعلم من غير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق؛ كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

وأنه متكلمٌ آمرٌ ناهٍ واعدٌ موعدٌ بكلام أزلي قديم، قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء واصطكاك أجرام، ولا بحرف منقطع بإطباق شفة أو بتحريك لسان؛ وان القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كُتبه المنزلة على رسله.

وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوبٌ في المصاحف محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والفراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى عليه الصلاة و السلام سمع كلام الله سبحانه وتعالى بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله من غير شكل ولا لون.

وإذا كانت له سبحانه هذه الصفات كان حيًا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا، متكلما بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات.

وأنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله فائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعلاها.

وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد؛ إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله عز وجل؛ فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلمًا.

فكل ما سواه من إنس وجن وشيطان وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعًا

وإنشاءً بعد أن لم يكن شيئًا، إذ كان في الأزل موجودًا وحده، ولم يكن معه غيره، فأحدث بعده إظهارًا لقدرته وتحقيقًا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقار إليه وحاجة.

وأنه متفضل بالخلق والاختراع لا عن وجوب، ومتطوّل بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان، إذ كان قادرًا أن يصبّ على عباده أنواع العذاب، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلًا ولم يكن منه قبيحًا ولا ظلمًا.

وأنه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم، إذ لا يجب عليه ولا يتصور منه ظلم، ولا يجب عليه لأحد حق.

وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فتلقوا أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به.

وانه يفرّق بالموت بين الأرواح والأجساد، ثم يعيدُها إليها عند الحشر والنُشور، فيُبعثر من في القبور، ويحصّل ما في الصدور، فيرى كل أحدٍ ما عَمِلَهُ من خير أو شرٍّ مُحْضَراً، ويصادف دقيق ذلك وجليلَه مُسطَراً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويعرف كل واحد مقدار عمله خيره وشره، بمعيار صادق يعبر عنه بالميزان وإن كان لا يساوي ميزان الأعمال ميزان الأجسام الثقال، كما لا يساوي الإصطرلاب الذي هو ميزان المواقيت والمسطرة ميزان المقادير، والعروض الذي هو ميزان الشعر سائر الموازين.

ثم يحاسبهم على أفعالهم وأقوالهم وسرائرهم وضمائرهم ونياتهم وعقائدهم بما أبدوه وأخفوه، وأنهم يتفاوتون فيه إلى مناقش الحساب وإلى مسامَح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب.

وأنهم يساقون إلى الصراط، وهو جسر ممدود بين منازل الأشقياء والسعداء أحدُّ من السيف وأدقُّ من الشعر، يخفُّ عليه من استوى في الدنيا على الصراط المستقيم الذي يوازنه في الخف والزنة، ويعثر به من عدل عن الصراط المستقيم إلا من عفى عنه بحكم الكرم؛ وأنهم عند ذلك يسئلون، فيسأل من يشاء من

الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومن يشاء من الكفار عن تكذيب المرسلين، ومن شاء من المبتدعة عن السنة، ومن شاء من المسلمين عن أعمالهم.

فيسأل الصادقين عن صدقهم، والمنافقين عن نفاقهم، ثم يساق السعداء إلى الرحمٰن وَفداً، والمجرمون إلى جهنم وِردًا.

ثم يأمر بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويخرج بعضهم قبل تمام العقوبة والانتقام بشفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء ومن له رتبة الشفاعة.

ثم يستقرُّ أهل السعادة في الجنة منعمين بالنظر إلى وجه الله تعالى، ويستقر أهل الشقاوة في النار مردّدين تحت انواع العذاب، مبعدين عن النظر بالحجاب إلى وجه الله ذي الجلال والإكرام.

وانه خلق الملائكة وبعث الأنبياء وأيدهم بالمعجزات؛ وأن الملائكة كلهم عباده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وأن الانبياء رسله إلى خلقه، وينتهى إليهم وحيه بواسطة الملائكة، فينطقون عن وحي يوحى لا عن الهوى؛ وأنه بعث النبي الأمي القرشى محمداً ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم والإنس والجن، فنسخ بشرعه الشرائع وجعله سيد البشر، وامتنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد، وهو قول: "لا إله إلا الله" ما لم يقترن بها شهادة الرسول ﷺ: وهو قول: "محمد رسول الله" وألزم الخلق بتصديقه في جميع ما أخبر عنه في الدنيا والآخرة، وألزمهم اتباعه والاقتداء به، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7] فلم يغادر شيئا يقربهم من الله تعالى إلا أمرهم به، ولا شيئا يقربهم إلى النار ويبعدهم عن الله إلا نهاهم عنه، وعرّفهم طريقه؛ وأن ذلك أمور لا يرشد إليها بمجرد العقل والذكاء؛ بل أسرار يكاشفُ بها من حضرة القدس قلوب الأنبياء؛ فالحمد لله على ما أرشد وهدى وظهر من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، والصلاة والسلام على محمد المصطفى وخاتم الأنبياء وآله وصحبه.

* * *

ثم قال رحمه الله تعالى: **(والأكلُ من الحلال).**

فإن الأكل من الحرام ظلمة في النفس وقسوة في القلب ومعصية في الجوارح وحجاب عن قبول الأعمال وإساءة في الأخلاق وتبذير في العمر.

فالطاعة مع أكل الحرام كالبناء على وجه الماء، فمثل المتعبد الذي يغتذي بالحرام مثل الذي يبني بناء يجعل أساسه فوق الماء؛ فأنى يثبت ذلك البناء؟ فطاعة من ذكر لا تجديه نفعاً وإن أسقطت الطلب ظاهراً، وقد دل على ذلك أخبار كثيرة. قال بعض العارفين: المعدة موضع تجمع الأطعمة؛ فإن طرحت فيها الحلال صدرت الأعضاء بالأعمال الصالحة، أو الشبه اشتبه عليك الطريق إلى الله تعالى، أو التبعات كان بينك وبين أمر الله حجاب.

وقال القشيري: اتفقوا على أن من كان أكله الحرام لم يفرق بين الوسوسة والإفهام، كما أن من أساس الطريق تجنب أكل الحرام، فمنه تجنب شهوة البطن والفرج بأن لا يمتلىء من الطعام ولامن الجماع فإنَّ لهذه النفس الأمَّارة العدوة الكافرة على الإنسان قوة كبيرة وسلطان عظيم بسيفين ماضيين تقطع بهما رقاب صناديد الرجال وهما شهوتا البطن والفرج اللتان قد تعبَّدتا جميع الخلائق وأَسَرَتاهُمْ، فيجب على السالك فَلُّ غرب الحسام الواحد الذي هو البطن.

واعلم أنه تعالى سلط على الإنسان شهوتين عظيمتين هلك بهما أكثر الناس: البطن والفرج، غير أن شهوة الفرج وإن كانت عظيمة السلطان هي دون شهوة البطن، فإنه لا ثوران بها إلا من جهة شهوة البطن؛ فالشهوة البطنية تحمل صاحبها أوّلاً على أن يمتلىء من الطعام، فيترتب على ذلك فساد أمر دنياه ودينه.

**أما الدنيوى** فلأن أصل كل داء البردة: أي التُّخَمَة، ويترتب على ذلك فساد الأعضاء من أبخرة فاسدة يتولد منها آلامٌ وأمراض مؤدية إلى الهلاك. كما حكى عن سليمان بن عبد الملك أنه كان ذا نهمة، فخرج فوجد دابة عليها زنبيل فيه بيض قد طبخ، فدعا بتين وهو راكب، فما زال يقرن التين بالبيض حتى أتى على ما في الزنبيل كله، فوجد له ثقلًا في معدته فهلك. فانظر كيف ساقته شهوته إلى حتفه؛ قيل للشبلي: ابنك انبشم من كثرة الأكل، قال: لو

مات ما صليت عليه: أي لأنه قتل نفسه، فهذا هو الداء الدنيوي الطبيعي.

**وأما الديني** المؤدي للهلاك الأبدي، فإنه يؤدى إلى السمن وكثرة الكلام والجماع وإهمال الطاعات وإتيان المحرمات ونسيان ذكر رب البريات ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فيجب على كل سالك أن لا يملأ بطنه من طعام وشراب؛ فإن كل صاحب شريعة طالبًا سبيل النجاة فيتوجب عليه تجنب الحرام والورع في الشبهات؛ فإنه ما أُتِي على أحد إلا من بطنه، إذ منه تقع الرغبة وقلة الورع في الكسب والتعدّي لحدود الله، فالله الله التقليل من الغذاء الطيب في الطعام واللباس، فإن اللباس غذاء الجسم كالطعام به ينعم حيث يحفظه من الهواء البارد والحار الذي بمنزلة الجوع، فكل واشرب والبس لبقاء جسمك في عبادتك لا لجسمك، فإن الجسم لا يطلب إلا سدَّ جوعَةٍ بما كان وَوقاية من الهواء الحارّ والبارد مما كان، سواء كان خبزَ سميدٍ ولحم أو قبضة بقلٍ أو كِسرة كما أشار إلى ذلك المصطفى بقوله: «**اذا اشتد كَلَبُ الجوع فعليك برَغيفٍ وجرَعةِ ماء**»[1] وسواء كانت حلة أو عباءة.

## [شهوات النفس]

**وأما النفس** فلا تطلب منك إلا الطيب من الطعام والشراب واللباس؛ وإنما تريد من كل شيء أحسنه، ولو استطاعت أن تنفرد بالأحسن كله دون الناس لم تقصر، والذي يؤديها لذلك طلب التقدم والترؤس وأن يُنْظَرَ إليها ويشار ولا يُلْتَفَتَ لِغيرها، فإن كانت النفس هي المغذية للجسم والناظرة لصونه خاض في الشبهات بل وقع في المحرمات؛ لأنها أمَّارة بالسوء مطمئنة بالهوى، فهلكت وأهلكت في الدارين، وربما لا تبلغ منهما مناها؛ لأن الأمر الإلهي رزق مقسوم معلوم وأجل مسمى محدود.

* * *

ثم قال رحمه الله تعالى: (**وصون الجوارح عن الضلال؛ فلا يقول بلسانه ما لا يحل، ولا ينظر بعينيه ما لا يحلّ، ولا يسمع بأذنه ما لا يحل**).

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10366).

**اعلم** أن اللسان أملك شيء للإنسان سريع الحركة، حركته أقرب للهلاك منها إلى النجاة، كثير العثرات. قال عليه الصلاة والسلام «**وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم**»[1] هو ترجمان إرادة الحق بما شاء أن يجريه في عالم الشهادة، واللسان قلم القلب يكتب به، عين القدرة بما تملي عليه الإرادة من العلوم في قراطيس ظاهر الكون، وقلب العبد هو محل الإلقاء الإلهي من خير وشر شرعًا، وهو لوحُ المحوِ والإثبات ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: 39] فيخطر للعبد أن يفعل فعلاً ما، ثم ينسخه خاطر آخر، فيمحى الأول ويثبت الثاني. فإذا علمت ذلك فيجب على السالك حفظ اللسان. قال ﷺ: «**احفظ لسانك**»[2]؛ أي صُنه عن النطق بما لا يعنيك، فإن من كثر كلامه كثر سَقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فهو في النار، «**وهل يَكُبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم**»[2] وخصَّ اللسان لأن الأعضاء كلها تابعة له؛ فإن استقام استقامت؛ وإن اعوجَّ اعوجَّت. وقال رجل: «يا رسول الله ما النجاة؟ فقال: «**امْلِكْ عليك لسانك**»[3] أي لا تحركه بمعصية، وقال ﷺ: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتَّقِ الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت، اعوججنا**»[4]، وأراد بذلك أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، فاللسان أشدّ الأعضاء جماحًا وطغيانًا وأكثرها فسادًا وعدوانًا.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة السجدة، حديث رقم (3548) [2/ 447].

(2) ونصه كاملاً: عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما نجاة المؤمن؟ فقال: احفظ لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطئتك» رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (743) [17/ 271] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (5060) [4/ 270] ورواه غيرهما.

(3) انظر الهامش السابق.

(4) رواه عبد بن حميد في المسند، عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم (979) [1/ 302] ورواه الديلمي في الفردوس برقم (1276) [1/ 322].

## [العين]

**وأما العين**، فاعلم أن العبد إذا حسنت حاله وتحقق في رعاية ما توجه عليه من التكليف في بصره ووقف به عند ما حدَّ له وصرفه في بعض ما أباحه الله له، وإن استطاع أن لا يصرفه إلا في واجب أو مندوب فلا يقصر فذلك صاحب بصر على الحقيقة، وإن الله إذا حصل العبد في الباب ولم يتَعَدَّ حدَّ المشرّع في بصره، إذا شاء يكرمه بكرامات تختص بهذا المقام وينزله منازل مختصة به لا ينالها إلا صاحب بصر منه سبحانه؛ فالمنازل لا تحصل إلا لأهل الوصول وأهل العناية.

وإذا عُلِمَ ذلك فيجب على المريد أن يكف بصره فلا ينظر إلى شيء من المحرمات، قال ﷺ: «**اصرف بصرك**»[1] أي اقلبه إلى جهة أخرى إذا وقع على محرم كأجنبية أو أمرد حسن ونحو ذلك بلا قصد، فإن صرفته حالًا لم تأثم، وإن استدمت أثمت ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30] والغض عن المحارم يوجب حلاوة الإيمان، ومن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة في القلب، ثم يقوى فيصير صبابة ينصبُّ إليه القلب بكليته، ثم يقوى فيصير غرامًا يلزم القلب كلزوم الغريم، ثم يقوى فيصير عشقًا وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفًا وهو الحب الذي وصل إلى شغاف القلب ودواخله ثم يقوى فيصير تتيُّمًا، والتَّتَيُّم: التعبد، فيصير عبدًا إلى من لا يصلح كونه هو عبدًا له، فيقع القلب في الأسر فيصير أسيرًا بعد ما كان اميرًا، ومسجونًا بعد ما كان مطلقًا.

## [السمع]

**وأما السمع**، فاعلم أن العبد المتحقق في سماعه عن الله علامته الانقياد إلى كل عمل يقرب إلى الله من جهة سماعه: أعني بالتكليفات المتوجهة على الأُذُن من أمر ونهي، كسماعه العلم والذكر والثناء على الحق والموعظة

---

(1) رواه أبو داود في سننه، باب ما يؤمر به من غض البصر، حديث رقم (2148) [2/ 246] ورواه الدارمي في السنن، باب في نظرة الفجأة، حديث رقم (2643) [2/ 361] ورواه غيرهما.

والقول الحسن. ومنها التصامم عن سماع الغيبة والسوء من القول والخوض في آيات والرفث والجدال وسماع كل محرم، وقد وصف الله مَنْ هذه أوصافه في كتابه في معرض الثناء عليهم لنقتدي بهم ونعرف أنا إذا سلكنا مسلكهم لنا نصيب من ذلك الثناء، فقال ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: 55].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

**(وكذلك لا يستعمل اليدين والرجلين والفرج والقلب فيما لا يحل، فإذا وقعت الصيانة صحت الديانة، وبها تظهر عجائب القلب وأنواره، وتسير في كون الإنسان أسراره؛ فصون الجوارح هو السبيل إلى لقاء حضرة الرضوان لوجود كمال نور الإيمان بصون الجوارح عن العصيان).**

## [استعمال اليدين]

**وأما اليدان**، فاعلم أن العبد الموفق المراد إذا تحقق في مراعاة التكليف الموجه عليه شرعًا في يده فصرفها فيما أبيح له وبسطها فيما وجب عليه أو ندب إليه، وقبضها عما حرم عليه، أو كره له ورعًا وهِمَّةً فإنّ «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1] فالواجب كإخراج الزكاة، والمندوب كصدقة التطوع، والمحظور كالسرقة ولمس ما لا يحل لمسه والضرب بغير حق ونحو ذلك، والمكروه كمّس ذكره بيمينه عند البول والاستنجاء وغير ذلك، والمباح كجليس الخياط أو النجار فيمد يده لبعض ما عنده فيمسكه في يده بغير حاجة أو تقليب ثوب، فإذا وقف عند الحدود ووفى بالعهد أثمر ذلك السخاء والزهد وبذل المال وكفّ الكف عما لا ينبغي، وقد قال ﷺ «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[2].

---

(1) رواه الترمذي في سننه، باب 11، حديث رقم (2317) [4/ 558] ورواه ابن ماجه في السنن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم (3976) [2/ 1315] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب المسلم من سلم المسلمون. . ، حديث رقم (10) [1/ 13] ورواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما: باب بيان تفاضل الإسلام. . ، حديث رقم (40) [1/ 65] ورواه غيرهما.

## [استعمال الرجلين]

**وأما الرِّجلان** فلا ينقل خطوة، بل ولا يحرك رجلًا إلا في طاعة أو بنية صالحة، فينبغي أن تقف على حقيقة قدمك، واحذر أن تكون عابدًا لهواك معتكفًا على صنم لذتك، تتبع خطوات الشيطان، وتمشى في ظلم المخالفة والعصيان، وتسعى على قدم الغرور، وذهلت عن المصير إلى من إليه تصير الأمور، هيهات لا بد من مقدمات مجاهدات، ومراعاة ما توجه عليك في رجلك من التكليفات كسائر الأعضاء من قبض بتقييد عن السعي في المحرمات والمحظورات وبسطٍ بتكثير الخُطا إلى المساجد ولزوم الجماعات لكون المشائين إليها في الظلم تبشر بالنور التَّام في القيامتين كما قال عليه الصلاة والسلام: «**بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة**»[1] وامش في قضاء حوائج المسلمين، واسع على عيالك، واثبت يوم الزحف، ولا تزلّ قدمك، واسلك بها على الصراط المستقيم ولا تتّبع السبُل ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37] فإذا أحكمت المشي على هذه المقامات أحكمت المشى على أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر، بل أدقّ وأخفى، وإن الله يطلعك بكرامات ويطلعك على منازل كما في سائر الأعضاء تكرمة منه وعناية ليثبت به فؤادك.

فمن الكرامات المختصة بهذا المقام في ظاهر الكون المشي على الماء وفي الهواء وفي طيّ الأرض، والحكايات فيه عن الأولياء أشهر من أن تذكر.

## [شهوة الفرج]

**وأما الفرج**، فاعلم أن شهوة الفرج ضعيفة جداً في ذاتها؛ إذ ليس لها حركة من نفسها، وإنما هو من خاطر يقوم بالقلب للنكاح، ينتج ذلك الخاطر ويولده نظرة بعين أو لمس بيد أو سماع بأذن من منازعة حديث وهذا كله يتولد من الامتلاء والشبع، وهو أصل الأشياء المحركة لهذه الشهوة، فمتى وقع شيء من هذا ثارت الشهوة وتقَوَّى سلطانها، فحركت العضو ذكرًا كان أو أنثى، فطلب وقوع ما تحرك إليه، فإن عُصم وأقدِر عليه وقع حلالًا؛ وإن

(1) رواه الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (1275) [2/ 68] ورواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (755) [1/ 440] ورواه غيرهما.

خذل وقع حراماً، فإذا سُدّت هذه المسالك لم تتحرك الشهوة، وأصله الامتلاء من الطعام؛ فإنه إذا امتلأت البطن قامت خواطر الفضول في النفس فتحركت الجوارح بحسب حقائقها بأنواع فضولها، وإذا جاعت البطن عميت العين وخرس اللسان وصم الأذن وانقبضت اليد والرجل، وانعدمت شهوة الفرج، وفنيت خواطر الفضول، ولهذا قال الصادق المصدوق عليه الصلاة و السلام: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1] فسُدُّوا مجاريه بالجوع والعطش أى هذه الأشياء معينَةٌ على البعد مما يأمر به من السوء والفحشاء. وقال ﷺ: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[2] وقال ﷺ : «**الصوم جُنَّةٌ**»[3] فنبَّه بهذا الإخبار على أن السبب المولد لثوران هذه الشهوة الخبيثة الطعام والشراب، فإن جَوَّع بطنه استنار القلب، قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أقل أحدكم الطعامَ مُلىء جوفه نورًا**»[4] وحينئذ يكشف له عن عالم الغيب، فيشاهد من أسرار الله ما شاء الله.

## [القلب]

**وأما القلب**، فاعلم أنه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه؛ فإن أزاغه كان بيتاً للشيطان ومحلاً للخسران وموضع نظر المطرود من رحمة الله، ومعدن وساوِسِهِ، وحضرة أعيانه، ومهبط مردته، وخزانة غروره؛ وإن أقامه فذلك قلب المؤمن المتقي الورع الذي قال فيه «**ما وسعنى**

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث رقم (1933) [2/ 717] وروى نحوه مسلم في صحيحه، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة. . ، حديث رقم (2174) [4/ 1712] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «من استطاع منكم الباءة. . ، حديث رقم (4778) [5/ 1950] ورواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما: باب استحباب النكاح. . ، حديث رقم (1400) [2/ 1018] ورواه غيرهما.

(3) رواه الحاكم في المستدرك كتاب الإيمان، حديث رقم (265) [1/ 152] ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن الصوم جنة. . ، حديث رقم (3427) [8/ 214] ورواه غيرهما.

(4) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

**أرضي ولا سمائي ووسعَنِي قلب عبدي المؤمن»**[1] فقلبُ العبد الخصوصي، بيت الله وموضع نظره، ومعدن علومه وحضرة أسراره، ومهبط ملائكته، وخزانة أنوار كعبته المقصودة وعرفانه المشهورة، رئيس الجسم ومليكُه، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، مع السلامة من الآفات وزوال الموانع، فصلاحه صلاح الجسد، وفساده فساده، ليس لعضو ولا جارحةٍ حركةٌ ولا سكونٌ ولا ظهورٌ ولا كونٌ ولا حكمٌ ولا تأثيرٌ إلا عن أمره الذي هو محل القبض والبسط والرجاء والخوف والشكر والصبر؛هو محل الإيمان والتوحيد والتنزيه والتجريد، وهو الموصوف بالصحو والسكر والإثبات والمحو والإسراء والنزول وحامل المعاني، كما أنه صاحب الجهل والغفلة والظن والشك والكبر والكفر والنفاق والرياء والعجب والحسد والشره والهلع، ومحلّ كل وصف مذموم إذا لم ينظر الله إليه وحرمه التوفيق، وهو رسول الحقّ إلى الجسم، فإما صادق وإما دجّال، إما مضلٌ وإما هادٍ، فإن كان كريمًا أكرم، وإن كان لئيمًا أُسلم، فإن كان رسول خير وإمامَ هُدًى حَرَّك أجناده للطاعة، وتَوَجَّهَت سفراؤه إلى أمرائِه العشرة، وهي خمسة مُلكية وخمسة ملكوتية، فالملكوتيون يسمون أرواحا، والملكيون يسمون حواسَّ كحاسة البصر والسمع والشم والذوق واللمس. والأمراء الروحانيون كالروح الحيواني والخيالي والفكري والعقلي والقدسي؛ فإذا نفذ الأمر الإلهي إلى واحد من هؤلاء الأمراء من القلب بادر لامتثال ما ورد عليه، وهكذا السفراء هم الخواطر المشهورة.

* * *

ثم قال رحمه الله تعالى: (**وترك صحبة الجهال، فإن صُحبة الجاهل نقصٌ في الدين، وقلّة في اليقين، ومعاداة المتقين؛ والجاهل من باع دينه بدنياه، وضيع دنياه فيما يهواه، وليس بالجاهل من أقام الصلاة وقال لا إله إلا الله، وكف عن محارم الله، ولو لم يعرف توجيه المسائل، ولا إقامة الدلائل،**

(1) رواه الديلمي في الفردوس. . ، حديث رقم (4466) [3/ 174].

**ولكن إذا احتاج سأل صونًا لنفسه عن الزلل).**

اعلم أنه لا بد للإنسان من مخالطة الإخوان وصحبة الخلان، لكن يتعين عليه أن لا يخالط إلا أهل الفضل والكمال دون أهل الجهل والضلال، فإن المرء بقرينه يُعرَف. قال الشاعر:

عن المرءِ لا تسْأل وسَلْ عن قرينه فكل قرينٍ بالـمُقارَن يَقتَدِي[1]

وقال ﷺ: «**المرءُ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[2] وقال ﷺ: «**لا تصاحبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكُلْ طعامك إلا تقيٌّ**»[3] وقال ﷺ: «**إيَّاك وقرينَ السُّوءِ فإنك به تُعْرَف**» وقال عليٌ كرَّم الله وجهه: ما شيءٌ أدَلَّ على الشيء، ولا الدخانُ على النار من الصاحب على الصاحب؛ فصُحبة الأخيار تورث الفلاح والنجاح، والنظر إلى أهل الصلاح يورث صلاحًا، والنظر إلى الصور يورث أخلاقًا وعقائد مناسبة لخُلُقِ المنظور وعقيدته.فالمعاشرة والمقارنة لها تأثير في الإنسان؛ بل في الحيوان بل في النبات بل في الجماد. فإذا علمت ذلك فالاقتصار على صديق واحد أولى، لأن الكمال عزيز.

* * *

قال رحمه الله تعالى: (**وملازمة ذكر الله بلا مَلال، فإن الذين يذكرون الله كثيراً يَحُط الذكر أثقالهم، فتخف أرواحهم فترقى في الملكوت فتأتي صاحبها بغرائب الحِكَم ولطائف المعارف، ولا يوقد نار الحب في القلب إلا ذكر الله، فإذا وقع حبّ الله في القلب أحبَّ الربَّ وسَعِدَ السعادة الأبدية السرمديَّةَ**).

---

(1) أحد ستة أبيات للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، أبو عمرو البكري الوائلي، المولود سنة 86 ق، هـ والمتوفى سنة 60 ق، هـ.

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب البر والصلة، حديث رقم (7319) [4/ 188] ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (8015) [2/ 303] ورواه غيرهما.

(3) رواه أبو داود في سننه، باب من يؤمر أن يجالس. . ، حديث رقم (4832) [4/ 259] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في صحبة المؤمن، حديث رقم (2395) [4/ 600] ورواه غيرهما.

## [الذكر مفتاح الفلاح]

اعلم أن الذكر مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح بفضل الله الكريم الفتاح، وهو العمدة في الطريق، ومعَوَّل أهل التحقيق، وهو الموصل إلى السعادة الأبدية والحياة السرمدية كما مر مبسوطًا، والذّكر نار لا تبقي ولا تذر، فإذا دخل بيتًا يقول أنا لا غيري، فإن وجد فيه حطبًا أحرقه فصار ناراً؛ وإن كان فيه ظلمة كان نوراً فنوَّره؛ وإن كان فيه نور صار نورًا على نور، والذكر يذهب من الجسد الأجزاء الزائدة الحاصلة من الإسراف في الأكل ومن تناول اللُّقَم الحرام؛ وأما الحاصلة من الحلال فلا يد له عليها، فإذا احترقت الأجزاء الخبيثة وبقيت الأجزاء الطيبة سَمِعْتَ من كل جزء ذكرًا كأنه ينفخ في البوق. وأولًا يقع الذكر في دائرة الرأس فتجد فيه صوت الكؤوس والبوق، والذكر سلطان إذا نزل موضعاً نزل ببوقاته وكؤوساته؛ لأن الذكر ضد ما سوى الحق، فإذا وقع في موضع اشتغل بنفي الضد كما تجده من اجتماع الماء والنار، وبعد هذه الأصوات تسمع أصواتًا مختلفة مثل خرير الماء ودويّ الريح وصوت النار إذا تأججت، وصوت الأرحية وخبط الخيل، وصوت أوراق الأشجار إذا هبت عليها الأرياح، وذلك لأن الآدمي مركّب من كل جوهر شريف ووضيع من التراب والنار والماء والهواء والأرض والسماء وما بينهما، فهذه الأصوات أذكار كل أصل وعنصر من هذه الجواهر، ومن سُمِع منه شيء من هذه الأصوات فقد سبح الله وقدسه بكل لسان وذلك نتيجة ذكر اللسان بقوة الاستغراق، وربما صار العبد إلى حالة إذا سكت عن الذكر تحرك القلب في الصدر حركة الولد في بطن أمه يطلب الذكر. قالوا: فإن القلب مثل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام والذكر لبنه، وإذا كَبِرَ وقوي صعد منه حنين إلى الحق وصوتٌ وصعقات ضرورية شوقًا إلى الذكر والمذكور.وَذكْرُ القلب يشبه رنة النحل لا صوتٌ رفيع مشوّش ولا خفيٌ شديد الخفاء؛ وإذا استمكن المذكور من القلب وانمحى الذكر وخفي فلا يلتفت الذاكر إلى الذكر ولا إلى القلب، فإن ظهر له في أثناء ذلك التفاف إلى الذكر أو إلى القلب، فذلك حجاب شاغل، وذلك هو الفناء كما مر.

**ومن علامات ذكر اللسان** أنك إذا تركت الذكر لم يتركك، وذلك طيران الذكر فيك لينبهك عن الغيبة إلى الحضور.

ومن علاماته شد الذكر رأسك وأعضاءك جميعًا فتكون كالمشدود بالسلاسل والقيود.

ومن علاماته أن لا تخمد نيرانه ولا تذهب أنواره؛ بل ترى أبدًا أنوارًا صاعدة وأخرى نازلة، والنيران حواليك صافية تتأجَّج وتتقد، وإذا وقع الذكر كأنه غرز الإبر في لسانه، أو أن وجهه كله لسان يذكر بنور فائض عنه.

**دقيقة**: اعلم أن كلّ ذكر يشعر به قلبك تسمعه الحفظة، فإن شعورهم يقارن شعورك، وفيه سر حتى إذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك في المذكور بالكلية يغيب ذكرك عن شعور الحفظة.

* * *

قال رحمه الله تعالى: (**وخوف دائم ودمع هطال، فإن العبد عبدٌ، وهو لا ينفك عن تقصير في الخدمة، فلا بد له من خوف يحقق عبوديته لهذا الملك العظيم الذي لا يطاق انتقامه، والخوف جامع لشتات النفوس من أوطان الغفلة والبطالة، فهو حصنُ الأعمال الصالحة عن الضياع، والدمعُ شفيع المذنبين وسلوةٌ للخائفين، ومرضاةٌ لرب العالمين، فعليك بالدمع الهطال لتصلح فيك الحال**).

قد جمع الله للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وناهيك بذلك فضلاً، فقال تعالى ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154] وقال ﷺ: «**رأس الحكمة مخافة الله تعالى**»[1] وقال ﷺ: «**من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير الله تعالى خوّفه الله تعالى من كل شيء**»[2] وقال

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، الفصل الثاني في ذكر آثار. . ، حديث رقم (743) [1/ 470] ورواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (3258) [2/ 270] ورواه غيرهما.

(2) أورده أبو الفرج في صفة الصفوة من كلام السري السقطي، ذكر المصطفين من أهل بغداد، [2/ 376].

تعالى«وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة»[1] وحقيقة الخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد يكون ذلك الخوف في جريان ذنوب،وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة، وهذا أكمل وأتم، لأن من عرف الله تعالى خافه بالضرورة، وكلاهما موجب للذلة والانكسار والرقة والبكاء، ومن عرف جلال الله تعالى وأنه خلق الجنة وخلق لها أهلًا، وخلق النار وخلق لها أهلًا؛ وأنه تمت كلمته بالسعادة والشقاوة في حق كل أحد صدقًا وعدلاً، فإن ذلك لا يتصور لغيره ولا يصرفه عن تنفيذ قضائه الأزلي صارف وهو لا يدري ما الذي سبق به القضاء في حقه، ولا يدري ما الذي يختم له به، ولا أن يكون مقضيًا له بشقاوة الأبد، فهذا لا يتصور أن لا يخاف، وهو جدير أن يكثر البكاء والعويل خوفًا من هذا الملك الجليل.

## [علاج العجز عن حقيقة المعرفة]

وأما من عجز عن حقيقة المعرفة فعلاجه النظر إلى الخائفين ومشاهدة أحوالهم أو سماع ذلك؛ فإن أخوف الخلق من الله تعالى الملائكة والأنبياء والأولياء والعلماء وأهل البصيرة.وأعظم الخلق أمنًا الغافلون الأغبياء الذين لا يمتد نظرهم لا إلى السابقة ولا إلى الخاتمة ولا إلى معرفة جلال الله تعالى. وقال ﷺ :« **ما جاءني جبريل عليه السلام قط إلا وهو يرعد فرقًا من النار**»[2] وقال ﷺ :«**أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية**»[3] وكان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليس له راحة، وكان لصدره الشريف أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وذلك ناشيء عن عظيم الرهبة والخوف والذلة لله سبحانه، وذلك مما ورثه من أبيه إبراهيم عليه السلام؛ فقد ورد أنه كان يسمع من صدره صوت

---

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن حسن الظن الذي. . ، حديث رقم (640) [2/ 406] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار. . ، حديث رقم (777) [1/ 482].

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (3538) [8/ 309] ولفظه عنده: «والله إني أتقاكم لله وأخشاكم له». وروى نحوه غيره.

كغليان القدر على النار مسيرة ميل. وقال ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»**[1] ومن هذا الحديث ونحوه أخذ أهل الطريق البكاء والنحيب.

**تنبيه**: قد قصّر المصنف حيث لم يذكر الرجاء مع الخوف؛ فإن الخوف إذا انفرد أهلك، والرجاء إن انفرد أهلك، فهما قرينان لا بد من اجتماعهما. قال ﷺ: **«أقسم الخوف والرجاء أن لا يجتمعا في أحد في الدنيا فيريح ريح النار، ولا يفترقا في أحد في الدنيا فيريح ريح الجنة»**[2] وذلك لأن انفراد الخوف يفضي إلى القنوط واليأس من الرحمة، وانفراد الرجاء لأمن المكر فلا بد للسعادة من اجتماعهما، ولذا قيل: الخوف والرجاء كالجناحين للسير إلى الله، فلا يمكن السير إلا بهما، فاقتصار المصنف على أحدهما دون الآخر من ضيق العطَن، كما لا يخفى على أهل الفطن.

**قال الغزالي**: وإذا كان مدار العبودية على أمرين: القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية، وذا لا يتم مع هذه النفس الأمارة إلا بترغيب وترهيب؛ فإن الدابة الحرون تحتاج إلى قائد يقودها وسائق يسوقها، وإذا وقعت في مهواة ربما تضرب من جانب ويلوَّح لها بالشعير من جانب حتى تنهض وتتخلص، فكذا النفس دابة حرون وقعت في مهواة الدنيا، فالخوف سوطها وسائقها، والرجاء شعيرها وقائدها فلذا يلزم العبد أن يشعر النفس بالخوف والرجاء وإلا فلا تساعده النفس الجموح على الطاعة، فعليك بالتزام هذين معًا، ليسهل عليك احتمال المشقة وينتظم لك السير إلى الله تعالى.

* * *

قال رحمه الله تعالى: **(وتفريح الملكين بمحاسن الأعمال، فإن ملائكة الله يُسَرون بطاعة الله، وكاتب اليمين وكيل على كاتب الشمال، فإذا عمل العبد الحسنة بادر إلى كتابتها صاحب اليمين، وإذا عمل السيئة قال لصاحب الشمال**

---

(1) أورده ابن كثير في تفسيره، سورة المؤمن، [4/ 82].

(2) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (1626) [1/ 403] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (1004) [2/ 5].

**لا تكتبها إلى سبع ساعات، فإذا مضت ولم يتب ولم يستغفر كتبها عليه صاحب الشمال).**

## [استبشار الملائكة بالعمل الصالح]

قد جاء في عدة أخبار وآثار أن الملائكة تستبشر بالعمل الصالح وتفرح به إذا صدر من الآدمي وتحزن لضدّه، فينبغي للعبد أن يفرحهم ولا يحزنهم، لاسيما الكرام الكاتبين الملازمين له، فقد ورد في الخبر عن سيد البشر أنه قال: «**صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد حسنة كتبها بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: أمْسِكْ، فيمسك ست ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئًا، وإن لم يستغفر الله كتب عليه سيئة واحدة**»رواه الطبرانى[1] والبيهقى عن أبي أمامة، ولفظ الحديث «**ست ساعات**» فقول المصنف سبعًا خطأ.

وورد أيضًا أن الأعمال تعرض على الأنبياء وكذا على الآباء والأمهات فيفرحون بالأعمال الصالحة ويحزنون على أضدادها؛فيجب على العبد أن يفرح نبيه وأباه وأمه ولا يدخل عليهم ما يؤذيهم. قال ﷺ" **تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتكم وتزداد وجوههم بياضًا وإشراقا، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم**"رواه الحكيم الترمذي[2]. ولم يصب المصنف حيث اقتصر على الملائكة ولم يذكر هؤلاء مع أن النبي أعظم حقًا على أمته، والأبوين أعظم حقًا على ولدهما من الملائكة بأن لا يؤذيهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى: (**والاستغفار والصلاة على الرسول من محاسن الأعمال، والصوم والصدقة والفكر والذكر ومحاسبة النفس والإحسان في العيال والرفق. في النفس وبعباد الله والورع والزهد في الدنيا كل ذلك من**

(1) في المعجم الكبير برقم (7971) [8/ 247].

(2) في السنن، باب ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس، حديث رقم (747) [3/ 122].

**محاسن الأعمال).**

أفاد رحمه الله أن الاستغفار من خير الخصال وأفضل الأعمال. قال ﷺ: «**الاستغفار ممحاة للذنوب**»[1] رواه الدارقطني وغيره. وقال: «**الاستغفار في الصحيفة يتلألأ نورًا**» رواه الديلمي[2] وغيره. وقال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذي ذكره الله في قوله** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: 14]» رواه الإمام أحمد وغيره[3].

## [الصلاة على النبي ﷺ]

وكذا من أفضل الأعمال **الصلاة على النبي ﷺ**، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة. قال ﷺ: «**أكثروا من الصلاة عليّ في يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن فَعَلَ ذلك كنت له شهيدًا وشافعًا يوم القيامة**» رواه البيهقي[4]. وقال: «**أكثروا من الصلاة عليّ؛ فإن صلاتكم عليّ مغفرة لذنوبكم، واطلبوا لي الدرجة والوسيلة، فإن وسيلتي عند ربي شفاعتي لكم**» رواه ابن عساكر[5]. وقال: «**أتاني آت من عند ربي عز وجل فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحَا عنه بها عشر سيئات ورفع له عشر درجات ورد عليه مثلها**» رواه الإمام أحمد[6]. وقال: «**من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجات**» رواه أبو

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس برقم (428) [1/ 124].

(2) في الفردوس برقم (429) [1/ 124].

(3) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر وصف طبع الله جل وعلا على قلب. . ، حديث رقم (2787) [7/ 27] ورواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة ويل للمطففين، حديث رقم (3334) [5/ 434] ورواه غيرهما.

(4) في السنن الكبرى، باب الساعة التي في يوم الجمعة. . ، حديث رقم (5790) [3/ 249].

(5) ورواه علي بن الحسن الشافعي، في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه ناشب برقم (7812) [61/ 381].

(6) في المسند عن طلحة الأنصاري برقم (16399) [4/ 29].

داود[1] وغيره. وقال: «**من صلى عليّ حين يصبح وحين يمسي عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة**»[2] رواه الطبراني وقال: «**من صلى عليّ صلاة كتب الله له قيراطًا من الأجر، والقيراط مثل أُحُدٍ**»[3] رواه ابن عدي وأفضل صِيَغ الصلاة عليه ما علّمه لأصحابه حيث قالوا: «**يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا اللّهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**» رواه الإمام أحمد والشيخان وغيرهم[4]، وهل الأفضل الاقتصار على هذا، فلا يزيد لفظ سيدنا أو يزيدها؟ قال جمْع: الأفضل أن لا يزيد على الوارد شيئًا إلا بإذن صاحب الشرع ولم يأذن. وقال آخرون: لا بأسَ بزيادتها. والخلاف مرتب على الخلاف في أن الأولى الوقوف مع الأمر وسلوك منهاج الأدب، فمن قال بالأول قال بالأول، ومن قال بالثاني قال بالثاني.

**وأما محاسبة النفس** فسيأتى الكلام عليها في كلام المصنف، فذكرها هنا تكرار فكان ينبغي حذفه.

## [الصوم]

**ومن أفضل الأعمال** أيضًا **الصوم**. قال ﷺ: «**الصوم جُنَّةٌ من عذاب الله**» رواه البيهقي[5]. وقال: «**الصيام جنة من النار كجنة أحدكم من القتال**» رواه الإمام أحمد[5] وغيره. وقال: «**الصيام جُنة حصينة من النار**» رواه البيهقي[6].

---

(1) في سننه برقم (1530) [2/ 88] ورواه ابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (8703) [2/ 253] ورواه غيره.

(2) أورده المنذري في الترغيب والترهيب برقم (987) [1/ 261].

(3) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين [6/ 170].

(4) ورواه النسائي في السنن الكبرى، باب ما يقول إذا انتهى إلى قوم فجلس إليهم، حديث رقم (10191) [6/ 97] ورواه البيهقي في سننه الكبرى، باب الصلاة على النبي ﷺ. . ، حديث رقم (2673) [2/ 147] ورواه غيرهما.

(5) ورواه أحمد في المسند برقم (17939) [4/ 217] ورواه غيره.

(6) ورواه الترمذي في سننه، باب ما ذكر في فضل الصلاة، حديث رقم (614) [2/ 512] ورواه غيره.

وقال «**الصيام جنة ما لم يخرقها بكذب أو غيبة**»[1] رواه الطبراني. وقال: «**الصيام جنة، وهوحصن من حصون المؤمن، وكل عمل لصاحبه إلا الصيام، فيقول الله: الصيام لي وأنا أجزى به**» رواه الطبراني[2]. وقال: «**الصيام جنة من النار، فمن أصبح صائمًا فلا يجهل يومئذ، وإن امرؤ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبه وليقل إني صائم، والله الذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» رواه النسائي[3]. وقال: «**الصائم في عبادة ما لم يغتب مسلما أو يؤذه**» رواه الديلمي[4]. وقال: «**إن الله تعالى يقول: إن الصوم لي وأنا أجزى به، إن للصائم فرحتان: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه تعالى فرح، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» رواه الإمام أحمد[5].

وأعلم أنه ليس المراد بالصوم في هذا المقام ونحوه مما وُعِدَ عليه الثواب العظيم مجرد الإمساك عن المفطرات بالنية الذي هو صوم الغافلين اللاهين الذين دأبهم الغيبة والفطر على الحرام ونحوه من الآثام، فإن من هذا حاله ليس لله تعالى حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجله، كما في عدة أحاديث قال حجة الإسلام: للصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص، فذكر الأول والثالث ثم قال: وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين، فهو كف الجوارح عن الآثام.

## [الصدقة]

**ومن أفضل الأعمال أيضًا الصدقة.** قال ﷺ: «**إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربِّيها لأحدكم كما يُربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير**

---

(1) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين، [4/ 250].

(2) في المعجم الكبير، عن أبي أمامة برقم (7608) [8/ 133].

(3) في سننه (المجتبى) برقم (2234) [4/ 167] ورواه الطبراني في الأوسط برقم (4179) [4/ 273].

(4) في الفردوس، برقم (3825) [2/ 411] ورواه غيره.

(5) في المسند برقم (9712) [2/ 443] ورواه غيره.

**مثل أُحُدٍ»** رواه الترمذي[1]. وقال: «**الصدقة تسدُّ سبعين بابا من السوءِ**» رواه الطبراني[2]. وقال: «**الصدقة تمنع ميتة السوء**» رواه القضاعي[3]. وقال: «**الصدقة تمنع سبعين نوعًا من أنواع البلاء أهونها الجذام والبرص**» رواه الخطيب[4]. وقال: «**الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبرّ الوالدين تحوّل الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء**» رواه أبو نعيم[5].

وأهمل المصنف ذكر الصلاة مع كونها أهم من هذين وأفضل وذلك تقصير. قال ﷺ: «**أفضل الأعمال الصلاة لوقتها**» رواه الشيخان[6]. وقال: «**الصلاة نور المؤمن**» رواه القضاعي وابن عساكر[7]. وقال: «**الصلاة خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر**» رواه الطبراني[8]. وقال «**الصلاة قربان كل تقي**» رواه القضاعي[9]. والأخبار في ذلك كثيرة.

## [الفكر]

ومن أفضل الأعمال أيضًا **الفكر**: أي التفكر في مصنوعات الله وآياته. قال ﷺ: «**فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة**» رواه أبو الشيخ ابن حيان[10]. وقال: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره**»

---

(1) في سننه، باب ما جاء في فضل الصدقة، حديث رقم (662) [3/ 50].

(2) في الكبير برقم (4402) [4/ 274].

(3) في مسند الشهاب برقم (97) [1/ 91].

(4) في تاريخ بغداد برقم (4326) [8/ 207].

(5) في حلية الأولياء، ترجمة أبي عمرو الأوزاعي، [6/ 145].

(6) البخاري في صحيحه، باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملاً. . ، حديث رقم (7096) [6/ 2740] ومسلم في صحيحه، باب كون الإيمان بالله تعالى. . ، حديث رقم (85) [1/ 90] ورواه غيرهما.

(7) مسند الشهاب، الصلاة نور. . ، حديث رقم (144) [1/ 117] ورواه أبو يعلى في المسند برقم (3655) [6/ 330].

(8) في الأوسط برقم (243) [1/ 84] وفي الكبير برقم (7871) [8/ 217].

(9) في مسند الشهاب، الصلاة قربان. . ، برقم (265) [1/ 181].

(10) في العظمة، باب ما ذكر من الفضل في المتفكر. . ، حديث رقم (43) [1/ 299].

رواه أبو الشيخ[1]. وقال: «**تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله، فإنّ بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك**» رواه أبو الشيخ[2]. وقال: «**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**» رواه الطبراني[3].

ومن أفضل الأعمال **الذكر**، وقد مرّ الكلام عليه، فذكر المصنف له هنا تكرار لا فائدة فيه.

## [الإحسان]

ومن أفضل الأعمال **الإحسان** في العيال. قال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله**»[4] وقال: «**خياركم خياركم لنسائه**»[5] وقال: «**الخلق كلهم عيال الله وأحب الناس إليه أنفعهم لعياله**»[6] وهذا لا تعلق له بما وُضعت الرسالة فيه، فكان ينبغي للمصنف حذفه.

## [الرفق بالنفس]

ومن أفضل الأعمال **الرفق بالنفس في العمل**. قال ﷺ: «**اُكلفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا**»[7] وقال: «**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل**»[8] وقال: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه**»[9].

---

(1) في العظمة، باب الأمر بالتفكر، حديث رقم (5) [1/ 216].

(2) في العظمة، باب الأمر بالتفكر، حديث رقم (22) [1/ 240].

(3) ورواه أبو الشيخ في العظمة، باب الأمر بالتفكر. . ، حديث رقم (1) [1/ 210] ورواه غيره.

(4) رواه ابن ماجة في سننه، باب حسن المعاشرة، حديث رقم (1977) [1/ 636] ورواه الترمذي في سننه، باب فضل أزواج النبي ﷺ، حديث رقم (3895) [5/ 709] ورواه غيرهما.

(5) رواه أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان، حديث رقم (1134) [2/ 75].

(6) رواه الطبراني في الكبير، برقم (10033) [10/ 86] ورواه أبو يعلى في المسند عن أنس برقم (3315) [6/ 65].

(7) رواه النسائي في سننه الكبرى، في المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة، حديث رقم (838) [1/ 274] ورواه الحميدي في المسند عن السيدة عائشة برقم (183) [1/ 95].

(8) رواه البخاري في صحيحه، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (6100) [5/ 2373] ورواه مسلم في صحيحه، باب فضيلة العمل الدائم. . ، حديث رقم (783) [1/ 541] ورواه غيرهما.

(9) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بلزوم الرفق في الأشياء. . ، حديث رقم (551) [2/ 311] ورواه القضاعي في مسند الشهاب، ما كان الرفق في شيء. . ، حديث رقم (793) [2/ 16].

## [الورع]

ومن أفضل الأعمال **الورع**، وهو تجنب الشبهات خوف الوقوع في المحرمات فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. قال ﷺ: «**كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا، وأقِلَّ الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**» رواه البيهقي[1].
وقال: «**فمن الورع الذي يقف عند الشبهة**» رواه الطبراني[2].

## [الزهد]

ومن أفضل الأعمال **الزهد**، قال ﷺ: «**ازهد في الدنيا يُحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يُحبك الناس**» رواه ابن ماجة وغيره[3]. وقال: «**الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصِبت بها أرغب منها فيها لو أبقيت لك**» رواه الترمذي[4] وقال: «**الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تتعب القلب والبدن**» رواه الطبراني[5]. وقال: «**الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن**» رواه أحمد[6]. قال رحمه الله تعالى (**والإقبال على محاسبة النفس كل الإقبال، فإن حساب العامل يقلل من فتراته وعثراته وجناياته**).

---

(1) في شعب الإيمان، الفصل الثالث. . ، حديث رقم (5750) [5/ 53] ورواه ابن ماجه في السنن، باب الورع والتقوى، حديث رقم (4217) [2/ 1410] ورواه غيرهما.

(2) في الكبير برقم (193) [22/ 78] ورواه أبو يعلى في المسند عن واثلة ابن الأسقع، حديث رقم (7492) [13/ 476] ورواه غيرهما.

(3) ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7873) [4/ 348] ورواه الطبراني في الكبير عن سهل بن سعد برقم (5972) [6/ 193] ورواه غيرهما.

(4) في سننه، باب ما جاء في الزهد في الدنيا، حديث رقم (2340) [4/ 571] ورواه ابن ماجه في سننه، باب الزهد في الدنيا، حديث رقم (4100) [1373] ورواه غيرهما.

(5) ورواه القضاعي في مسند الشهاب، الزهد في الدنيا. . ، حديث رقم (278) [1/ 188].

(6) في الزهد، مقدمة [1/ 10].

## [محاسبة النفس]

اعلم أن محاسبة النفس ركن عظيم من أركان الطريق. قال ﷺ: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»[1] وقال: «**حقيق بالمرء أن يكون له مجالس يخلو فيها بنفسه ويذكر ذنوبه فيستغفر الله منها**» رواه البيهقي[2]. وقال: «**يُبْصر أحدكم القذى في عين أخيه وينسى الجِذع في عينه**» رواه أبو نعيم[3].

والمحاسبة تفقد النفس ما لها وما عليها. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18] وإنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة، ولها ثلاثة أركان:

**أحدها**: أن تقيس بين نعمته وجنايتك، وهذا يشقّ على من ليس له ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة.

**والثاني**: أن تميز ما للخلق عليك مما لك أو منك، لتعلم أن الجناية عليك حجة، وأن الطاعة منة منه عليك فلا تستحق عليها ثوابًا، والحكم عليك حجة ما هي لك معذرة.

**الثالث**: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك، فلا تضيع ميزان وقتك من يديك.

وقد أهمل المصنف ذكر التوبة مع كونها مقدمة المحاسبة وأساسها، وذلك تفريط وإخلال. **والتوبة** خروج من كل خلق مذموم، والدخول في كل خلق محمود، ولا مذموم إلا ما ذمَّه الشرع، ولا ممدوح إلا ما مدحه، وهي أول مقامات السالكين، وبادىء اهتداء المريدين، ومن لن يُحْكم البدايات لا تصح له النهايات، ومن لم يحكم التوبة لا يصح له مقام يرتقي به إلى الله.

---

(1) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم (2459) [4/ 638] ورواه ابن أبي شيبة في المصنف، كلام عمر بن الخطاب، حديث رقم (34459) [7/ 96] ورواه غيرهما.

(2) في شعب الإيمان، الفصل الثاني. . ، حديث رقم (748) [1/ 472].

(3) رواه ابن المبارك في الزهد، في صفة الجنة. . ، حديث رقم (212) [1/ 70]. ورواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (610) [1/ 356] ورواه غيرهما.

والتوبة للمقامات كالمفتاح للأقفال والأساس للبنيان، لأن المقامات للخصوص، والتوبة للعموم كالنكرة وللخصوص كالمعرفة، والنكرة أولى من المعرفة إذ هي أصل، وقد رتب الله التوبة في أول المقامات في قوله: ﴿التَّٰٓئِبُونَ﴾ [التوبة: 112] ثم قال ﴿الْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: 112] ولا ينبغي أن يدخل تحت السلوك فى مقامات التوبة حتى يصحح مقام التوبة بشروطه.

* * *

قال رحمه الله تعالى: **(ومراقبة الله في كل الأفعال وبذلك يقل الفضول، وتُقام المعاذيرُ للجَهول، وَيخِفُّ حملُ البَلاء وتفتح أبواب الولاء)**.

## [المراقبة والمشاهدة]

اعلم أن المراقبة والمشاهدة من أرفع المقامات. قال ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] فالمشاهدة أن لا يلتفت العابد في عبادته بظاهره إلى ما يُلْهِيه عن مقصوده، ولا يشغل باطنه بما يشغله عن مشاهدة معبوده، فإن لم يحصل له هذا المقام المشار إليه بقوله: «**كأنك تراه**»[1] انحَطَّ إلى مقام المراقبة المشار إليه بقوله: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] أي إنك بمرأى من ربك ولا يخفاه شيء من أمرك.

ومن علم أن معبوده مشاهد لعبادته تَعَيَّنَ عليه تزيين ظاهره بالخشوع وباطنه بالإخلاص والحضور فإنه يعلم خائنة الأعينِ وما تخفي الصدور. وفيه حث على كمال الإخلاص ولزوم المراقبة. قال رحمه الله تعالى **(ومعرفة النَّفس بالعجز ودوام القهر والإذلال، وبهذا يقع التمييز بين المخلوق والخالق لتباين الحقائق)** هذه الجملة معناها كله ظاهر لا يحتاج إلى بيان.

**والحاصل** أنه ليس ثَمَّ إلا عَبدٌ وربٌ، فالعبد عاجز مملوك فقير لا يقدر على شيء ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: 73] والرب

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب سؤال جبريل النبي ﷺ..، حديث رقم (50) [1/ 27] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة منها: باب بيان الإيمان..، حديث رقم (8) [1/ 36] ورواه غيرهما.

على كل شيء قدير ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18، 61] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15].

* * *

قال رحمه الله تعالى: **(ومعرفة الله بعموم القدرة والجلال والجمال، فيُعطي ويمنع، ويخفِض ويرفع، ويضُرّ وينفع، حليم حكيم، غفور رحيم، غنيّ كريم، فعموم رحمته كعموم قدرته، وعموم فضله كعموم عدله، فما في الوجود لغيره تصريف، ولا على خلقه لغيره تكليف).**

من الأصول الدينية معرفته تعالى بعموم قدرته، فقدرته تعالى المؤثرة التي تفيض بها ما رجحته الإرادة من وجوه الماهيات، وكمالاتها في الأعيان شاملة لكل مقدور: أي ما من شأنه أن يقدر عليه جوهراً كان أو عرضاً، وهي غير منقطعة ولا مقتصرة على بعض الممكنات، لأن المقتضي للقادرية هو الذات، والمصَحِّح للمقدورية الإمكان، فالله على كل شيء قدير.

ومعرفته أيضًا بالجلال: أي العظمة والكبرياء والجمال، فله الجمال المطلق، جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال.

ومن آثار جمال أفعاله تقدس الرضا من عباده باليسير من الشكر وإثابة الكثير من الأجر على قليل العمل المدخول، ويجعل الحسنة عشرًا ويزيد من شاء ما شاء ويعفو عن السيئات ويستر الزلات، فعلى عباده أن يتجملوا معه في إظهار نعمته عليهم المؤذن بقلة إظهار السؤال لغيره والطلب ممن سواه وتجنب أضداد ذلك وهو سبحانه يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، ويزيد في الرزق وينقص على حسب ما اقتضت حكمته ومشيئته، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه. قال ﷺ: «**إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه**»[1] أي يعطي ويمنع وينقص الرزق باعتبار ما كان منحة قبل

---

(1) رواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما: باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام. . .، حديث رقم (179) [1/ 161] ورواه ابن ماجه في سننه، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (195) [1/ 70] ورواه غيرهما.

ذلك يزيد بالنظر إليه بمقتضى قدره الذي هو تفصيل لقضائه الأول، فمحصوله يُقَلِّل لمن يشاء ويكثر لمن يشاء.

حكي أن ابن الشجري كان جالساً يومًا على كرسي وعظه يقرر في قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: 29] فوقف على رأسه رجل وقال: فما يفعل ربك الآن؟ فسكَت وأفحِم وبات تلك الليلة مغمومًا، فرأى المصطفى في المنام فقال له: إنَّه الخضر وسيعود إليك، فقل له: شؤون يبديها ولا يبتديها يرفع أقواما ويضع آخرين، فلما أصبح أتاه، فقال له: يا هذا ما يصنع ربك الآن؟ فأجابه بذلك، فقال: صلِّ عن من علمك، وذهب مسرعاً.

**ومن أسمائه تعالى**: الضارّ النافع الحليم الحكيم الغفور الرحمٰن الرحيم الغنى الكريم، **فالضارُّ والنافع**: هو الذي يصدر عنه النفع والضر، إما بواسطة أو بغيرها .**والحليم**: الذي لا يستفزه غضب ولا يحمله غيظ على استعجال عقاب .**والحكيم**: هو ذو الحكمة، أو هو مبالغة الحاكم .**والغفور**: ستار القبائح والذنوب بإسبال الستر عليهما في الدنيا، وترك المؤاخذة بهما في العقبى .**والرحمٰن الرحيم**: المنعم بجلائل النعم ودقائقها .**والغني**: هو المستغني عن كل شيء .**والكريم**: المتفضل الذي يعطي من غير سؤال ولا وسيلة، أو المتجاوز الذي لا يستقصي في العقاب.

وقوله: فعموم رحمته كعموم قدرته أي: إن رحمته وسعت كل شيء، كما أن قدرته شملت كل مقدور.

وقوله: وعموم فضله كعموم عدله أي: إن إنعامَهُ وجودَه عامٌّ كما أن عدله عامٌّ؛ فهو واسع المغفرة شديد العقاب، وهومنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتصريف، لا رادَّ لقضائه بالنقض، ولا معقبٌ لحكمه بالرد ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23].

* * *

قال رحمه الله تعالى: **(ورحمةُ الخلقِ فتح باب الوصال،فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. إنما يرحم الله من عباده الرحماء)**.

ختم رسالته بذكر الرحمة تفاؤلًا بأن الله تعالى يَرْحمه، وهذا إلمَاحٌ بقوله ﷺ

: «**ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء**»[1] فقوله «**ارحم**» أتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلائق، فيرحم البر والفاجر والوحش والطير.

وقوله: «**من في السماء**» أي من أمره نافذ في السماء، أو المراد بمن فيها ملائكته وسلطانه. قال بعض العارفين: فإن كان لك شوق إلى رحمة الله، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ودفع غضبك، فأقربُ الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه. قال ﷺ: «**ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم**»[2] وقال: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[3] فكل ما تفعله من خير دقّ أو جلّ فهو صادر عن صفة الرحمة.

## [وصية للسالكين]

**(وكما ختمنا بالرحمة كلامنا)** فنسأل الله أن يدخلنا في رحمته وأن يعتق من النار رقابنا إنه جوادٌ كريمٌ رءوف رحيمٌ **(ثم نختم برسالة جليلةٍ)** تتضمن وصية السالكين على اختلاف مراتبهم ملخصًا ذلك من كلام عظماء القوم وذلك بأمور:

**منها**: أن السالك يجب عليه أوّلًا أن يعقد التوبة بشروطها المعروفة ثم يحاسب نفسه على سبيل المناقشة دون المساهلة. فالمبتدىء له ذنوب الأعمال من الأعضاء والجوارح. والمتوسط البالغ مقام القلب له ذنوب الأحوال، فهو صاحب عزم على فعل وترك، فذنوبه مثل أن يعزم على التسليم وترك التدبير

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التوبة، حديث رقم (7631) [4/ 277] ورواه الطبراني في الأوسط برقم (1384) و(3031) و(9013) ورواه غيرهما.

(2) رواه أحمد في المسند عن عمرو بن العاص رقم (6541) [2/ 165] ورواه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم (1055) [2/ 133] ورواه غيرهما.

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾، حديث رقم (7010) [6/ 2711] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (2353) [2/ 324] ورواه غيرهما.

فإذا نقض ودبَّرَ فقد أذنب؛ فإن لم يتُبْ منه لَا يَترقى، وكأنْ عَزَمَ على دوامِ المحبَّة للهِ دون غيره، فمتى مال للغير فقد أذنب بالنسبة لحاله، فإن لم يتب لُطِمَ قلبه بلطمات الغَيرة، فيخرجه حاجب العزَّة عن بساط القرب، وكذا سائر المعاني. والمنتهي ذنوبه أعظم وعقوبته أشدّ، فإنه على بساط المشاهدة متمتع بنعيم الوصال، متلذذ بالنظر إلى كمال الجمال وجمال الكمال، فإذا غفل بملاحظة ما سواه بالاستحسان لشيء من الأكوان عذب بذلّ الحجاب، ومن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء على الباب رُدَّ إلى اصطبل الدواب، فلا بد لكل من الثلاثة من المحاسبة والاستغفار والاستعاذة من عقابه وبرضاه من سخطه وبه منه.

واعلم أن المحافظة على التوبة في المراتب الثلاثة إكسير الرجال ومناط حصول جميع المقامات والأحوال.

**ومنها**: أنه يترك آمال العوام الأكَّالين كالبهائم؛ بل يقصر آماله على ما هو فيه ويقنع من أمر المعاش بأدوَنِه، فمن أراد التنعم لم يمكنه الزهد في الدنيا؛ بل يزداد حرصه يومًا فيومًا عليها، ويصير كالذباب يطير من مزبلة ويقع على مزبلة حتى يهجم عليه ملك الموت على غفلة فيقتنص روحه بمخالبه وحينئذ يتنبه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا**»[1] ومن لم يزهد في الدنيا فهو بمعزل عن طريق الآخرة، ومن كان عزبًا فليس له على قانون أهل الطريق أن يتزوج، فإنه مع نفسه في نزاع وجدال، والتزوج يقطعه عن الطريق. وقد استأذن مريد شيخه في التزوج فقال له: الله فردٌ يحبُّ الفرد فانفرد: والصبر عن المرأة خير من الصبر عليها؛ وإن كان متزوجًا، فإن وافقته على ما التزم واشتغلت بالطاعة لا يطلقها وإلا طلقها.

**ومنها**: أن يحصل من العلم ما يصح به اعتقاده على مذهب أهل السنة. وما يصح به عمله على وجه الشرع مراعيًا للمذاهب الأربع ليخرج من الخلاف، وإذا حصل من العلم ما يعرف به الاعتقاد الصحيح والعمل على

(1) رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير، من كلام سهل بن عبد، حديث رقم (515) [2/ 207].

التصحيح استغنى عن الزيادة فيلازم الطاعة والذكر فإنه أنفع وأرفع للحجاب.

**ومنها**: أن يحافظ على آداب السنة وأهل الطريق في عاداته وعباداته، ويطالع كتب التصوف، فإن التصوف كلُّه أدبٌ.

**ومنها**: أن يتوكل على الله في شأن الرزق ويعتمد على كمال كرمه، فإنه بالغ في ضمان الرزق في كتابه، ومن لم يثق بضمان هذا الكريم الرحيم ولم يطمئن لوعده أنى يستقر الإيمان في قلبه. سئل البسطامي: من أين تأكل؟ فقال: الله يُطعِم الكلب والخنزير، أتَرَى أنه لا يُطعِم أبا يزيد؟.

**ومنها**: أنه لا يبذل عرضه لأبناء الدنيا، ولا يتملق لهم طمعًا فيهم، ولا يرائي بشيء من أعماله، فيسقط عن نظر الحق بالالتفات إلى الخلق، والرياء مفسِدٌ للأحوال والأعمال. قال الورّاق: لا تطلب المنزلة عند الله وأنتَ تطلبها عند الناس، ولا ينبغي أن يلتفت إلى اعتقاد الناس وانتقادهم.

**ومنها**: أنه لا يصحب البطالين المساهلين في أمر الدين، ولا يتخذ صاحبًا إلا بعد تجربته. قال بعضهم: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها واحذر أن تحرقك.وأكثر فساد الأحوال والأعمال من مخالطة الناس، ففي العزلة السلامة. وأنشد بعضهم:

النَّاسُ بَحْرٌ عميقٌ والبُعْدُ عنهُم سَفينَة
إني نصَحتُك فانظُرْ لِنفسِكَ المسكينَة[1]

**ومنها**: أنه إذا اعتزل يصرف أوقاته إلى الطاعة، ويمكن أن تكون جميع أوقاته مصروفة إلى الطاعة حتى وقت الأكل والشرب والنوم ومضاجعة حليلته ووقاعها، فإنما الأعمال بالنيات، فإذا نوى بأكله أو شربه التَّقوّى على العبادة لا الالتذاذ، وبالنوم دفع الملال لينشط للعبادة لا للاستراحة، وبالجماع قضاء حقها وتسكين شهوته لئلا يقعا في مُحَرَّم، أو لحصول ولد يعبُد الله، وكذا كل ما يعمل من حرفة وصناعة لأكل الحلال والتَّقوّي على العبادة صار ذلك كله

(1) البيتان من المجتث (مستفعلن فاعلاتن) هما للشاعر العباسي منصور بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة 306 هـ. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

طاعة، وبذلك يتروّح القلب ويسري نوره إلى النفس فتزكو ويزول عنها رذائل الأخلاق، ثم يسري نور النفس إلى الطبع فتزول ظلمات الطبيعة البشرية، فلا يزال يزيد نور القلب ويفيض على النفس ومنها على الطبع حتى يصير طبع البشر كالملك لا يحب بالطبع إلا الطاعة ويحترز بالطبع عن المعصية.

**ومنها**: أن يُوَزِّع أوقاته ويصرف كل وقت إلى ما يليق به، ثم يشتغل بذكر لا إله إلا الله على الوجه الذي تلقَّنَ بِهِمَّةٍ قويَّة مطأطئًا رأسه فوق سُرَّته ويخرج لا إله من ذلك الموضع وهو محل ظهور النفس مادًّا لا إله إلى المنكب الأيمن، ناظرًا بقلبه إلى كبرياء الله وعظمته لتصغر النفس ويميل رأسه إلى الجانب الأيسر، ويضرب بإلا الله بالشد القويّ على القلب اللحمي الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر بحيث يؤثر في القلب، وتصل حرارة الذكر إلى القلب وتذوب الشحمة التي فوقه، ولها رائحة مخصوصة حين الاحتراق والذوبان ويتبع تلك النار نور؛ فللذكر نار ونور ناره تخلي ونوره يجلي فإذا أثر ناره ونوره في داخل القلب سَدَّ الدم الغليظ الذي في وسطه، وهو منبع الحياة الحيوانية، ومنه يخرج أنهار الدماء في الشرايين إلى الأعضاء، يتصرف في البخار اللطيف الذي تركب منه الدم الساري في الاعضاء، وذلك البخار هو الروح الحيواني وهو النفس الإنساني التي هي مركب الروح الإنساني؛ فإذا تصرف الذكر في ذلك البخار فقد تصرف في النفس والنفس سارية في جميع البدن، فتتخلخل أعضاء البدن بتأثير الذكر، وتتأثر النفس بنار الذكر ونوره. وكما قلنا إن ناره تخلي ونوره يجلي، تتبدل ظلمات النفس بالأنوار، وتزول عنها الأخلاق المذمومة وتتحلى بالأخلاق المحمودة، ويتخلص القلب من ظلمات النفس ويزداد نورًا على نور، فيَستعِدُّ لفَيضَان أنوار صفات الرب تعالى، وعلى قدر الملازمة تظهر النتيجة.

وينبغي أن يحصر النفس على القلب ويجعل هاء إلا الله دائرة يطبقها على دائرة القلب بالقوة ويكون جانب الإثبات أكثر ملاحظة من جانب النفي. وينوي المبتدىء بكلمة التوحيد لا معبودّ غير الله، والمتوسط لا مطلوب أو لا مراد أو لا مقصود إلا الله. وإذا وجد بقلبه محبة مخلوق ممن ليس بواسطة بينه وبين الله ينوي لا محبوب إلا الله، ويصدق في النفي والإثبات ويخلص بهمته نفسه

من التعلق بالكائنات والميل إلى المشتهيات التي هي المعبودات الباطلة، ومن الميل إلى الكشوفات الكونية والكرامات العيانية التي لا طائل تحتها ويطلب الحق وحده، والميل الى الكشوفات والكرامات من هوس النفس وهواها، ومن التفت إليها وكانت مطمع نظره فهو مدرج بين المنكورين؛ بل إن وقعت بلا طلبه خيف عليه من الاستدراج.

قال بعضهم: إذا دخل السالك بستانًا وقال الطيور والشجر السلام عليك يا ولي الله، فإن لم يفطن أنه مَكْرٌ به مُكِرَ به؛ ثم إذا تنّور القلب بنور الوحدانية المودعة من ملازمة ذكر الله تعالى، وانعكست تلك الأنوار على صفحات الكائنات يرى الذاكر أن هذه الموجودات ما كانت حقيقية بل مجازية ممكنة غير واجبة، ويشاهد الوجود الحق الواجب الأزلي الأبدي، فحينئذ يقول لا إله إلا الله وينوي لا موجود إلا الله: أي الوجود الحقيقي لا يزال يكرر لا إله إلا الله بهذا المعنى حتى يضمحلّ جميع ظلمات الكائنات في نظر شهوده ويظهر نور التوحيد. وها هنا مزالُ الأقدام تتبينُ من بعدُ إن شاء الله.

وفهم بعضهم أن المراد من قولهم يحصر النفس على القلب لوصول أثر حرارة النفس إلى القلب أن لا يتنفس الذاكر ويضبط نفسه، حتى إن بعضهم يَعُد تلكَ الأنفاسَ كَمِ انضبطت وهو وهْمٌ، إذ ليس المراد من حصر النفس ما توهمه؛ بل ذلك صنعة الهنود من الجوكية المرتاضين ولهم فيها مقاصد دنوية فليحذر، بل يخَلِّي الذاكر النفس يروح ويجيء، ثم المبتدىء لا يمكنه ملاحظة معنى الإحسان مع ملاحظة معنى الذكر، فيخطر بباله أوّلًا معنى الذكر ويكرره على قلبه مرارًا حتى إذا أثر معناه في قلبه لاحظ حينئذ معنى الإحسان يذكر كأنه يراه، ثم إذا برق بارق من سحاب الكرم ولمع لامع من ضياء شمس الغيب يتوجه بسره للمشاهدة من غير تحديق النظر إليه، بل يطرق إجلالًا وتعظيمًا كما قيل:

أشتاق فإذا بدا ... أطرقت من إجلاله
لا خيفة بل هيبة ... وصيانة لجماله[1]

(1) لم أقف على اسم قائل هذين البيتين.

وقد اقتضت الحكمة الإلّهية أن يتعبدنا بالطاعات والأذكار والأدعية والاستغفار ليزيد بفضله من فضله، ومن ظهر عليه أسرار صفاته الأزلية عرف أن الأمور التي وقعت وتقع في جميع الكائنات والأوامر والنواهي التي صدرت من التعبدات هي مقتضيات الصفات الثابتة للذات أزلًا وأبدًا، فلا تطلب الحجة والبرهان.

**ومنها**: أنه ينبغي أن يستغفر الله تعالى من التقصير. قال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[1] والمراد غين أنوار لا غين أغيار فمن ظن أنه ليس مقصرًا وأنه بذل وسعه وصرف جميع أوقاته لخدمته وطاعته رأى من الخجل يوم تبلى السرائر ويطلب الحق.

| | |
|---|---|
| يا حسرة العاصين يوم معادهم | هذا وإن قدموا على الجنات |
| لولا الندامة والحياء من الذي | ستر العيوب لأعظموا الحسرات[2] |

**ومنها**: أنه يعتقد أنه تعالى لو عذبه بطاعته لاستوجب ذلك، ولو أن مملوكًا أقبل على سلطانه وتكلم معه والسلطان ملتفت إليه يسمع ما يقول، ففي أثناء ذلك إذا إلتفت إلى خادمة جاءت وقد منَعَ السلطان النظر إليها فولى ذلك المملوك وجهه من السلطان إليها وما راعى حرمة إقبال السلطان عليه وعلى كلامه، فأنت تعرف أنه يستحق الغضب السلطاني والقهر عليه، وأنصِف أنت كما أُنصِفت، هل عملنا يومًا من الطاعة ولم يخطر ببالنا غير الله، وقد تَمت تلك الطاعة على التوجُّه التامّ إلى الحضرة الأحدية؟

وهذا كله وصية أهل العموم. وأما أهل الخصوص من المنقطعين إلى الله المعرضين عما سواه فيحتاجون مع ذلك لوصايا أخر:

**فمنها**: دوام الاشتغال السِّرّي بوحدانيته بعدم إخطار الغير بالبال في جميع الأحوال، سِّيما من مظاهر الأفعال، فلا يرى الفعل إلا منه من المنع والعطاء والنفع والضر والإيذاء والإيلام والإهداء والإنعام وسائر ما يصدر من الآنام؛

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب الاستغفار..، حديث رقم (2702) [4/ 2075] ورواه أبو داود في سننه، باب في الإستغفار، حديث رقم (1515) [2/ 84] ورواه غيرهما.

(2) لم أقف على اسم قائل هذين البيتين.

ثم إذا ظهر الإنعام لا يشكر إلا الله حقيقة، ويشكر ذلك المظهر الذي بعثه الله في يده مجازًا، وإذا وقع إيذاءٌ وإيلامٌ يرى أنه أيضًا من الله تعالى لكن يُحاسِبُ نفسه فيما صدر منها حتى استوجب ذلك، قال تعالى ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] قال بعضهم: إنى لا أعرف ذنبي من سوء خلق غلامي ودابتي.

وسُرِقَ متاعُ جارِ صوفيّ [له] فقال: عليّ ضمانه لسوء ذنبي، سرق متاع جارِي أني لبست سراويلي البارحة قائما، هكذا كانوا محتفظين، فأنت دائمًا في الجدال والنزاع مع زيد وعمرو، ولا ترى تسميط الحق عليك ولا تحاسب نفسك، كم تتملق لبكر وخالد طمعاً كالسنور، فمتى تترقى إلى توحيد فوق توحيد الفعل وما صححت توحيد الفعل، ومن لم يصحح أول مراتب التوحيد وهو الفعل لا يترقى إلى توحيد الصفات، وإذا لم يترقَّ إليه لا ينكشف له توحيد الذات عياناً ووُجْدانًا، فكلما يتخيلون هؤلاء الذين لم يسلكوا مقامات الطريقة ولم يبذلوا أرواحهم في المشاهدة، ولم يذيبوا أبدانهم في المجاهدة، ولم يتخلصوا من الدليل والبرهان، ولم ينكشف لهم الحق حتى يشاهدوه بعين العيان بل تخيلوا خيالات سَمَّوْها توحيدًا، فطالعوا مطالعات فهموا ما يليق بخيالاتهم تقليدًا، فتزندقت طائفة منهم واتحدت أخرى، وهتكت حرمة الشريعة طائفة وكفرت بما جاء به الرسول أخرى، فهي أباطيل وضلالات وجهالات.

ومراتب الوصول والمشاهدة لا تنتهي أبداً، والسير في الله بالله من الله إلى الله لا ينقطع سرمداً، فلا تجعل لهمتك أمدا ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109].

والعجب من حال بعض العارفين أنهم يقولون: ما وراء هذا الذي شاهدوه مرمى وقد قال تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76] وكيف قنعوا بما منح لهم، ولقد قال ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 35] ؟.

ولقد قال نجم الدين البكري: اجعل من وجودك كُرَة، واجعل من تصرفات الحق صولجانًا وأضربك به في ميدان الطريقة، واعلم بأنك لا تصل

له أبداً، ولا تظن أن من شاهد الوحدانية في مرآة الكائنات توحيده في آية الكمال، أو استصحب العلوم اللدنية من معارف الأسماء والصفات وصَل إلى نهاية التوحيد، كلَّا؛ فهو وإن كان منزّها مشاهدته عن معرفته كان يعرف فوق ذلك، ولكن ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] والذي يدّعي أنه خاتم الولاية وأنت تقلده فهو دائر حوالي عوالم السطح، فخاتم النبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام، وخاتم الولاية محمد المهدي الموعود بظهوره.

وإنما أطلنا الكلام في هذه الوصية لأن بعض الفقراء تمسكوا ببعض معارف العرفاء؛ بل بعض العلماء شَوَّشوا أذهان بعض الأغبياء حتى وقعوا فيما وقعوا وخلعوا التكليف عن رقابهم، وطاروا حيث لا يمكن تحصيلهم من حجابهم.

قال الجنيد: مذهبنا هذا مشيد الأصول بالكتاب والسنة، والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيته يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي، فلا تقرَبَنّ منه. وقال أبو سعيد الخرّاز: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل. وقال أبو حمزة الخراساني: لا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأفعاله وأقواله. وقال أبو القاسم النصراباذي: إذا بدا لك شيء فلا تلتفت معه إلى جنة ولا إلى نار، فإذا رجعت عن تلك الحالة فعظِّم ما عظمه الله.

وقال أبو القاسم القشيري: المشايخ مجمعون على تعظيم الشريعة متصفون بسلوك طريق الرياضة، مقيمون على متابعة السنَّة، غير مخلِّين بآداب الديانة، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يَبْنِ أمرَهُ على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله فيما يدعيه مفتونًا.

**ومنها**: أنهم إذا وقفوا للتبتل والانقطاع إلى الله يصرفون جميع أوقاتهم بذكر لا إله إلا الله سِوَى الفرائض والسنن الرواتب ويتركون توزيع الأوقات، فإن الالتفات إليها ورعايتها ورعاية كل عمل في وقت مما يشوش على الحضور ويهيء من يراعي الأوقات وينبِّه عليها، فإنه إن لم يهيء من ينبه احتاج إلى

تفتيش نفسه فيتشوش ويتفرق ويهيىء له طعاماً حلالًا على القانون الوسط، فيحضره بين يديه ولا يتكلم معه، ويوصيه بذلك قبل الانقطاع.

وقد شرط الجنيد لصحة التبتل ووجدان فائدة الخلوة ثمانية شرائط:

**الأول**: دوام الوضوء، فإن له نوراً ساطعاً يظهر ابتداءً كنور القمر تتنور الخلوة به وانتهاء كنور الشمس، فإذا ظهر كقرص الشمس ودخل في الصدر لا يبقى له ظهور فى الآفاق بل يسري إلى الأنفس فلا يظهر.

**الثاني**: دوام الخلوة يدخل فيها كما يدخل المسجد مُبَسملاً مستعيناً مستمداً من أرواح مشايخه بواسطة شيخه مخلصاً لله منقطعاً عما سواه، ويقعد متربعاً أو على حسب ما يستريح به قلبه دون تألم الأعضاء المشوش للقلب، متوجهاً إلى القبلة غير مستند ولا متكىء، مطرقاً رأسه تعظيمًا لله مغمضًا عينيه ملاحظًا قوله تعالى«**أنا جليس من ذكرني**»[1].

ثم يجعل خيال شيخه بين عينيه، فإنه رفيقه في طريقه، فهو معه برُوحانيته، فإن روحانيته متعلقة بروحانية كل واحد من مريديه ولو كانوا ألفًا، ثم يشغل قلبه بمعنى الذكر على قدر مقامه مراعياً معنى الإحسان في هذه الحالة.

ثم يُتْبعُ اللسان القلب، بأن يقول بلسانه: لا إله إلا الله على الوصف الذي ذكرناه سابقاً، وبقلبه لا موجود إلا الله؛ فإن المتبتل إذا لم يشاهد نور التوحيد من صفحات الكائنات قبل الخلوة والتبتل لا يحصل له فتح حقيقي، فهو قبل الخلوة في أوقات عزلته وخلوته يشتغل بما ذكرنا أوّلاً من الوظائف وتوزيع الأوقات بشرائطها وآدابها على قانون الصدق والإخلاص ليتخلص في الخلوة من وجوده في شهوده الحق؛ ثم إذا غلب معنى الذكر على القلب وأشرف نور حضور المذكور يترك ملاحظة معنى الذكر، ويلاحظ معنى الإحسان، يذكره كأنه يراه؛ ثم إذا غلب معنى الإحسان يُراقب بسره مراقبة خاصة بالتماوت والتفاني يفرّ من وجوده وإدراكه وشعوره ويكون مع الله كما

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، الرجل يذكر الله. . ، حديث رقم (1224) [1/ 108] ورواه البيهقي.

لم يكن يستمر على هذه الحالة ما دام ساكناً ساكتاً من حديث النفس، فإذا تحدث يشتغل بالذكر كما ذكرنا.

والخلوة ما أشار إليها الرسول بقوله: **«لي معَ اللهِ وقتٌ لا يسعُني فيه مَلكٌ مُقرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مرسلٌ»**[1].

**الثالث**: أن يصوم ويفطر قبل أن يصلي المغرب ويؤخر الأكل إلى العشاء الآخرة، والأحسن إلى السحر، لكن إذا شوشت نفسه وطالبته بالأكل أكل بين العشاءين.

**الرابع**: السكوت إلا عن ذكر الله، فلا ينبغي أن يتكلم الذاكر المتبتل إلا إذا تعين عليه شرعًا أو احتاج إليه، فإن تكلم بغير ضرورة خرج بشيء من نورانية قلبه مع الكلام، فالواجب أن لا يتكلم مع أحد إلا مع شيخه.

**الخامس**: دوام الذكر، وقد ذكرنا كيفيته.

**السادس**: نفي الخواطر خيراً كان أو شراً دون الاشتغال بالتمييز، فلا يخلي النفس تشتغل بالفكر فيما خطر له، فإنه إذا تفكر فى ذلك قويت النفس وضعف القلب فلا يقوى على النفي بعده، والنفس تفرح وتنشرح بالفكر في أمر الكون ويصعبُ عليها الإقبال على المُكوّن، فإذا لم يمنعها عن الفكر فيما خطر بالبال وأقبلت على الكون أعرضت عن المُكوّن وأساءت الأدب فعوقبت بتسليط الخواطر وحديث النفس وذهبت نضارة الوقت وتكدر القلب، وربما نفر عن الذكر والخلوة واختلط بأبناء جنسه، وكل ذلك أصله إساءة الأدب وعدم نفي الخواطر، فليحترز الفطن عن ذلك.

ولا يجوز للذاكر في مذهب أهل الخلوة أن يتفكر في معنى آية أو حديث إلا إذا ورد عليه معنى من التنبيهات الإلَهيّة أو الواردات الحقيقية فيفهمها ويشتغل بالذكر، فإن خاف النسيان كتبها.

**السابع**: دوام ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد والاستمداد، معتقداً أن هذا

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (2159) [2/ 226] وأورده الهروي في المصنوع، [1/ 258].

المظهر هو الذي عيّنه الحق سبحانه للإفاضة عليه، فمتى كان في باطنه تطلُّعٌ إلى غير شيخه لم ينفتح باطنه إلى الحضرة الوحدانية، فالإنسان في الجهات وله بدن وروح، والله سبحانه منزه عن الجهات، فحكمته اقتضت لاستفاضة من فى الجهة غير فيضان الحق الذي ليس في الجهة، إنْ عيَّنَ للبدن الإنسان المركَّب عن الكثرات الكثيرة جهة واحدة يكون توجُّهُه منها إلى الحضرة الواحدية، وهي الكعبة في عالم الأجسام والأبدان، وَعيَّنَ للروح الإنسان الذي هو مهبط أنوار الصفات الإلهية جهة واحدة يكون منها توجهه إلى الله، وتلك الجهة هي روحانية الرسول في عالم الأرواح، فكما لا تقبل الصلاة إلا بالتوجه إلى الكعبة لا يحصل التوجه إلى الله إلا باتباع رسوله والتسليم له وربط القلب بنبوّته، لأنه الواسطة بيننا وبين الله دون غيره من الأنبياء، فيتوجه البدن إلى الجهة الواحدة وكذا الروح، حصل للإنسان استعداد للاستفاضة من الحضرة الوحدانية.

ومن هاهنا يعرف أن المناسبة بين المفيض والمستفيض فيما يتعلق بالاستفاضة شرط، فلا بد للمريد أن يتوجه إلى شيخه بربط قلبه معه، ويعتقد أن الفيض لا يحصل إلا بواسطته، وإن كان الأولياء كلهم هادين مهديين، إذ استمداده الخاص واستفاضته لا تكون إلا من روحانية شيخه وحده، ويعلم أن استمداده من شيخه استمدادٌ من الرسول، فإن شيخه يستمد ويأخذ من شيخه وشيخه من شيخه، وهكذا إلى رسول الله، فهو مستمد بالحقيقة من الرسول، وهو من الحق جلَّ اسمه، فربط القلب بالشيخ أصل كبير في الاستفاضة، بل هو أصل الأصول، ولهذا بالغ المشايخ في رعاية هذا الشرط، وانقطاع الفيض عن أكثر المريدين لا يكون إلا من عدم ربط القلب بالشيخ بالتسليم والإذعان والمحبة وعدم الاعتراض، ولهذا قال بعضهم: ينبغي أن يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل.

**الثامن**: ترك الاعتراض على الله وعلى الشيخ، ودوام الرضا بقضاء الله على ما قدّر من السدّ والفتح والقبض والبسط والصحة والمرض، ملاحظًا قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216] ويتحقق أن الله تعالى أرحم بالعبد من الوالدة بولدها،

وأعلَمُ بمصلحة العبد من نفسه، والشيخ أعلَمُ بمزالّ المريد ومضالّه ومصالِحِه ومفاسده ومراشده، وقد جَرَّب الأمور ومارس الأحوال ورَكِب الأهوالَ وبَلَغ مبلغ الرجال. والمريد كمن دخل بريّة لم يسلكها ولا يعرف مواقع الخطر ولا يميِّز بين النفع والضر، وكمريض اعتقد أن الطبيب الفلاني عارف بعلاجه فيسقيه حُلْواً ومُراً وهو يتناول ما يعطيه آملاً لشفائه.

**ومنها**: أنهم في أوان خلوتهم وتبتلهم لا يفتحون أبوابهم لأحد جاء إليهم، ولينظروا إلى حال رسول الله في ابتداء أمره كيف يتحَنَّثُ في غارِ حِراء ولا يصْحَب أحدًا، فإذا جاء من يشغلك عن الله فلربما ألقى إليك الشيطان أن ينفعك إن داريته، ويضرك إن داريته، فتتساهل في أمرك مع الله ومعاملته، فتبتلى بأصعب من ذلك، وتنْصَبُ عليك أمور لا تقدر على مقاومتها فتضْطَرُّ إلى تخريب الأساس وتضييع الأصول، وسماع كلمات خارجة عن قواعد المعقول والمنقول من ظلوم وجهول.

قال بعضهم: من لم يعبد الحق اختيارًا عبد الخلق اضطرارًا.

وقال أبو بكر الحافي: لقد رأيت أنواع الضرر والفتور والقصور من اختلاط أرباب الدنيا، فإياك وتلبيسات النفس وخدع الشيطان بالإلقاء فيك أن هذا يهتدي وينتفع بك، فإنه من مكر اللعين.

وسئل بعضهم: ما دواء القلوب؟ قال: قلة الملاقاة.

وقال بعضهم: الشَّرُّ خَلْفَ العَتَبَةِ فلا تخرج من الباب وإلا فيقع الحجاب.

واستوصى بعض السالكين بعض العارفين فقال: امح اسمك من ديوان القوم واستقبل الجدار حتى تموت.

وكان داود الطائي جالساً ببيته لا يختلط بالناس، فقال له أخوه: إن كنت من الناس فلا بد من الناس، فقال: إن كنت من الناس فلا بد من الله.

**ومنها**: أنهم إذا قصدوا الانقطاع والتبتل في الخلوة، فلا بد أن يكون ذلك بحضور الشيخ وأمره ظاهرًا أو باطنًا، فإن المريد إذا صحت رابطته مع شيخه في حضوره وكان مُسَلِّماً لأوامره وإشاراته يرى شيخه في واقعاته فيأمره وينهاه ويُحل وقائعه.

**ومنها**: أنهم لا يدخلون الخلوة لقصد كشف كونيّ أو تحصيل كرامات عيانية، فإن من دخل الخلوة على ذلك ولم يراع شرط الإخلاص الصِّرف تصرَّف فيه الشيطان ولَعِب به وأراهُ الأشياء الباطلة كصور الحق.

دخل شخص الخلوة بلا إذن ولا وقت فجاء إليه الشيطان على صورة الخضر، فقال له: تريد أن تحصل لك العلوم اللدنية؟ قال: نعم وكان ميله إلى التكلم في المعارف، فقال له: افتح فاك، ففتحه فرمى الشيطان بزاقه في فيه، ثم بعد ذلك صنف كتابا مشتملاً على أبواب المعارف، فلما وصل إلى المقالات عرض ما صنَّف وحكى واقعته على الشيخ أبي بكر الحافي، فقال له ذلك شيطان جاء إليك في صورة الخضر ولعِب بك وشغلك عن طاعة الله وذكره، فاغسل الكتاب وتب إلى الله من الاختيار.

والشيطان يظهر على صور الصالحين كثيرًا، ولا يقدر على التمثيل على صورة رسول الله ولا بصورة الشيخ إذا كان تابعاً للنبي ﷺ مأذوناً بالإرشاد من شيخه المأذون له من شيخه وهكذا إلى حضرة الرسول، والشيطان يتمثل على صور كثيرة: منها الخياليين من المتفقهة والمبتدعين والأماردة الكريهي المنظر أصحاب القلانس في سن الست والسبع إلى ثلاث عشرة وخمس عشرة، وعلى صورة الاشخاص المكارين والكلب الأسود والذئب، وعلى صورة نورية حمراء كدرة اللون وبيضاء وبين الحمرة والبياض لكن بياضه ليس بصاف، يعرف المخلصون الصادقون في معاملاتهم مع الله تلك الصور، ينبئهم الحق عليها بواسطة شيوخهم وتعريفه إياهم، وكيفية مداخله ومواقع إضلاله بعد صحة الرابطة كما قلنا.

**ومنها**: أنهم إذا شاهدوا شيئًا في اليقظة أو بين النوم واليقظة لا يستحسنونه ولا يستقبحونه ولا يزيدون عليه ولا ينقصون، ويعرض ذلك على شيخه من غير طلب تأويل، فربما لا يرى الشيخ المصلحة فيه، ولا يكتم منه وقائعه فإنه خيانة والله لا يحب الخائنين، ولا يعرف تأويل واقعة الذاكر غير الذاكر، والمعبِّر لمنامات العوام بمعزل عن معرفة وقائع السالكين، فإنه أكثر وقائعهم أنفُسِيَّةٌ لا آفاقيَّة، وإن اتفق تطابق الآفاقية مع الأنفُسية ففي الأنفس معنى واقع مما وقع في

الآفاق مناسب لذلك، وينبغي أن لا يظهر على وقائعه غير شيخه. قال بعضهم: سرك لا يتجاوز زِرَّك. والضرر الذي يحصل للسانك في إظهار وقائعه لغير شيخه أكثر من أن يحصى، ومن لم يعوّد النفس على كتمان الوقائع لا يقدر على كتمان الكرامات، فإذا تصدى للإظهار أداه إلى الوقوف وعدم البلوغ إلى ذروة معاريج الأولياء. قال بعضهم: صدور الأحرار قبور الأسرار.

ورأى واحد من الصوفية رسول الله في منامه وسأله عن التصوف، فقال عليه الصلاة والسلام: هو ترك الدعاوي وكتمان المعاني. وأيُّ شيخ أظهر وقائع مريديه مما لا يتعلق بتأديب أو تربية فهو ساع في حجاب ومريديه بالإعجاب؛ والأولى بحال المريد نفي ما يراه في وقائعه، فإن الوقائع أكثرها خيالات تربى بها أطفال الطريق، وليس من لم ير شيئا بأقل مرتبة ممن رأى بل أفضل، فإن ضعفاء اليقين إذا رأوا قويَ يقينهم، وأما القويّ الكامل فلا يلتفت إليها فإنه يعرف أن الدار الآخرة على ما بيَّنه الله ورسوله في الأحاديث، فهي كما وصف من الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، والحساب لبعض دون بعض ووزن الأعمال وسائر الأحوال والأهوال، فلو لم تنكشف تلك الأمور فسيرى يوم البعث والنشور، ولو انكشف بخلاف ما وصف بتسويل الشيطان اضمحلّ ذلك في نور الإيمان، فأيُّ فائدة في كشفها، وأيّ ضرر في عدمه لمن أراد العروج إلى معارج العرفان، والوصول إلى مشاهدة جمال الملك المنان.

وأما أمور هذه الدار فكشف أحوال الناس مما يشغل السالك بالحوادث والعوارض، ومتى كان ملتفتًا إلى الحوادث أنى يستعد لظهور نور القديم؟و﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4] وليتحقق السالك أن نور نور الأنوار منزه عن جميع الألوان التي تظهر على الأنوار في أستار اللطائف السبعة من لون الكدرة والزرقة والحمرة العقيقية والصفرة والبياض والسواد البراق والخضرة ومنزه أيضا عن الأشكال القمرية والشمسية، وسائر ما يصل إلى الأفهام البشرية، ومقدَّس عن الظهور في صورة نورية أو خيالية أو مثالية، فكلما يشاهد الإنسان ببصيرته أو يتعلق بمعرفته، فالحق سبحانه أعلى من ذلك.

كيفيَّةُ المَرْءِ ليسَ المرءُ يُدْرِكها فكيف كيفيَّةُ الجبَّار ذي القِدمِ[1]؟

فهو تعالى منزّه عن كيف وكم وأين ومتى، أزَلِيَّتُه فوق ما تدرك العقول من معنى الأزل، وأبديَّته أقصى مما تفهمه الأفهام من معنى الأبد، هو الأول بلا ابتداء وهو الآخر بلا انتهاء وهو الظاهر بلا شبه ومثال، وهو الباطن من غير إمكان إدراكه بالخيال، منزه عن الحلول في الأشباح مقدّس عن السريان في الأرواح من قال اتَّحَدَ بالكون فقد ألحَد، ومن قال إنه ليس له تعين في ذاته إلا في الكون فقد أفسد العقائد وأجْحَد، إذ هو فى ذاته متعين قبل كائناته، عالم بذاته وبما يظهر من مخلوقاته، على مقتضيات صفاته، تجلى بذاته على ذاته، قبل ظهور مظاهر صفاته، فأراد إظهار كمالاته على صفحات الأرواح والأجسام، فأظهر أوّلًا مظهر المظاهر ونور الأنوار روح محمد عليه الصلاة والسلام، من فيض أنوار صفاته الذاتية، ثم أظهر من فيض نوره ما أظهر من عوالم الأرواح والأنوار.

ثم اقتضت حكمته لإكمال معرفته تعليق مظاهر صفات الذات لمظاهر صفات الأفعال، فخلق الأكوان من عوالم الأجسام، وأخَّر خلق جَسدَ آدم عليه الصلاة والسلام، ليتكمل تربية الأرواح في عوالمها على ما يشير إليه حديث جابر؛ ثم علق الأرواح بالأنفس تعلق التعاشق، ولولا وجوده لما مالت الأرواح التي هي من عالم الأنوار إلى الأنفس التي هي من عالم الظلمات وتعشُّق الزنجي على الرومي ليس بعجب، إنما العجب من العكس، لكن لما أراد الحق أن يجعل الحقيقة الإنسانية جامعة لما خلق في جميع العوالم خلق لها قالباً مركبًا من العناصر الأربعة التي هي من عالم الظلمات بعد كسر سوراتها بقدرته الكاملة وجعلها على هيئة وحدانيته، ولولاها لما كانت للحقيقة الإنسانية قابلية معرفة الله بالوحدانية، إذ الكثرات الكثيرة

---

(1) أحد بيتين نسبا للإمام علي كرم الله وجهه من البحر البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن) والبيت الثاني هو:

هو الذي أنشأ الأشياء مُبتدعاً فكيف يدركه مُستحدثُ النسَم

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

المتضادة وهي بحالها ليست بقابلة لإدراك الوحدة الحقيقية، ثم لَطَّف تلك الهيئة الوحدانية بهيئة أخرى أنزَهَ وأقدس منها.

والهيئة الوحدانية الأولى يقال لها المزاج بلسان الحكماء، واللطيفة القابلية بلسان العُرفاء. والثانية يقال لها النفسية. وفائدة تلطيف الأولى بالثانية جعلُ النفس قابلة لشدة تعلق الروح بها، إذ اللطيف كلما رأى لطافة تعلق بها. ثم من أرواح الروح الذي هو من عالم الأنوار بالنفس التي هي من عالم الظلمات تولدَّت اللطيفة القلبيَّة، ولها وجه إلى الروح الذي هو بمنزلة الأب للاستفاضة، ووجه إلى النفس التي هي بمنزلة الأم للإفاضة.

وللرُوح مَدَدُ عسكر الملائكة، ومنهم إلهام الخيرات والطاعات.

وللنفس مَدَدُ عسكر الشياطين، ومنهم وسواس الترغيب في المعاصي والمشتهيات، والقلب بين هذين العسكرين المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام: « **قلب العبد بين اصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبه كيف شاء**»[1] إشارة إلى صفتي اللطف الواقع من جهة الملائكة، والقهر الواقع من جهة الشياطين، فإذا أراد الله بعبده خيراً أمَدَّه بعسكر الملائكة لطفاً به، فيجيء منه المراضي والمحابُّ، وإذا أراد بعبده شراً سلَّط عليه عسكر الشياطين فيجيء منه المساخط والمعاصي قهراً عليه وعدلاً. ثم إذا وفقه للتوبة النصوح تفضلاً انهزم عسكر الشياطين وغَلَبَ عسكر الملائكة: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

ومن الدعاء المأثور: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقلّ من ذلك**»[2] فإذا أحسَّ الإنسان من

---

(1) رواه مسلم بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». (صحيح مسلم، باب تصريف القلوب كيف شاء، حديث رقم (2654) [4/ 2045]. ورواه غيره بألفاظ أخرى متقاربة.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [1/ 28] ورواه مسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599) [3/ 1219] ورواه غيرهما.

نفسه أثر قهره تعالى بظهور المعاصي ينبغي له أن يتضرع بالابتهال إلى الله تعالى ليخلصه ويغيثه، قال تعالى ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43] علَّم عباده أن يتضرّعوا إليه عند ظهور بأسه، ووجدان المعاصي دليل ظهور البأس، فالبلاء منه، والخلاص أيضاً منه، تعالى كبرياؤه، فاللطيفة القلبية غيبيَّةٌ شهادية، فمن جهة أنها غيبية ترى بمدد البصيرة ومدد الروح الأمورَ الغيبيَّة والحكَم الإلّهية، فتعرف أحوال الآخرة وتميل إليها، وتعرف الله تعالى فتطيعه وتحبه، ومن جهة أنها شهادية تعرف بمدد النفس والعقل الأمور الشهادية إذا علقها الحق تعالى بالقلب اللحمي الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من البدن تحت الثدي الأيسر بجنب عُظَيْمة الصدر، وهذا القلب من عالم الشهادة، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ بقوله: «**إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب**» فصلاحها بالإقبال على مولاها، وفسادها بمتابعة النفس وهواها، فإذا تنورت بأنواع العبادات الظاهرة والباطنة تصفت وتلطفت فصارت ألطف وأنور مما كانت وهي اللطيفة السِّريَّة القلبيَّة صارت ألطف وأصفى.

ثم الروح لما تنزل من عالمه وحصل له وَلَهُ القلب، انتفع بمعرفة الصفات الفعلية التي لم يكن له استعداد معرفتها وهي في عالمه فأقبل على منوّر أزيد مما كان أولاً، فها هنا يقال لها اللطيفة الروحية، وإنما هو روح مقبلٌ على الله منتفع بتنزله إلى النفس والقلب فصار أصفى، وحصل له سرّ أنوَر، فالسرَّان واقعان، وهما قلبٌ أصفى وروح أنور، وبعد ظهور نور سر الروح يظهر نورٌ ألطف وأصفى وأخفى وأنور من جميع الأنوار التي شوهدت قبلُ ويقال لها اللطيفة الخفية، ثم من فيض صفة الحياة الحقيَّة والموحديَّة والقيُّومية فاضت لطيفة أخرى يقال لها اللَّطيفة الحقيَّة، فهذه لطائف سبع أنوارها جُعِلت ملابسَ للحقيقة الإنسانية الجامعة التي يشير إليها كل أحد بقوله: أنا.

والمشايخ المتقدمون لم يتكلموا في ترتيب ظهور الأنوار التي يشاهدها السيَّار وإنما أمروا بنفيها على ما قاله الشبلي، لأن الاشتغال بها وتمييز بعضها عن بعض وانتظار ظهورها في أوقاتها يشغل سرّ السالك عن الاشتغال بالله، وربما يطوي مشاهدة بعض هذه الأنوار ويكاشف بما فوقه لمن في استعداده قابليَّة الجذبة، وربما لا يشاهدها أصلًا من له قوة اليقين وباشر سره صفو

اليقين، يشاهد الله بسره من غير تعلق بمكشوف ومشهود دونه.

لكن الشيخ علاء الدولة رتبها وجعل لونَ كل نورٍ سِتْراً للطيفة من اللطائف السبع، فجعل لون نور اللطيفة القابليَّة دُخاناً كدراً، ولون نور اللطيفة النفسية زرقة صافية، ولون نور اللطيفة القلبيّة أحمر عقيقياً صافياً، ولون نور اللطيفة السرية بياضاً صافياً صفيقًا، ولون نور اللطيفة الروحية أصفر، ولون نور اللطيفة الخفية سوادًا براقًا يظهر نازلًا من فوق الرأس، ولون نور اللطيفة الحقية خضرة صافية، ولا شك أن بعض السالكين قد يشاهد هذه الألوان من الأنوار؛ لكن ينبغي أن يعلم أن ظهور لون السواد البراق من فوق الرأس ليس لون نور اللطيفة الخفية، وإنما هو الوجود الإنسي الذي يفنى في ظهور نور تجلي الذات على ما انكشف لبعضهم، وإنما يظهر من جهة فوق الرأس، لأن الرأس أصل في الوجود، بل لون نور اللطيفة الخفية هو البياض الصافي، وهو أصفى مما قبلها، فلو كان مشاراً إليه بروح القدس لظهر بعد فناء الذات كما قد يظهر ألوان بعض اللطائف الأخر، وكذا لون الصفرة ليس لون ستر اللطيفة الروحية الإنسانية، بل لون ستر اللطيفة الروحيّة الحيوانية الإنسانية، التي هي النفس الإنسانية تجنست بالروح الإنساني فاللطيفة الإنسانية ذات لونين يظهر أحدهما قبل التجنيس بالروح الإنساني والآخر بعد التجنس، وينبغى أن يعلم أن المبتدىء قد يرى هذه الألوان من الأنوار مجتمعة مختلطة سوى السواد البراق، وهو بُعْدُ ما ترقى من طور النفس، وقد يرى مفردًا أيضًا، وليست رؤيتها مجتمعة أو منفردة علامة العبور من تلك اللطيفة التي شاهدها فيها بل علامة العبور منها أن يستوفي ذلك النور جميع أقطار وجوده بحيث ينفيه أو يذهله، وقد غلط في ذلك بعض من تصدَّى للإرشاد من غير اقتداء بأستاذ؛ فصير الطالبين بمجرد رؤية لون من تلك الألوان ذوي عجب وغرور.

واعلم أن هذه الأنوار أنوار غيبيَّة إنسانية حادثة تتراءى في الخيال على ألوان عالم الشهادة، إذ الخيال شبكة للحقيقة الإنسانية، بها يصطاد الأمور الغيبية على الصور الشهادية، فمن وقف في شيء منها فهو محجوب عن النور الإلٓهي القديم المنزه عن الألوان والأشكال والجهات، فلذا قال الشبلي: إنها حجاب الحضرة الإلٓهية، ورأس مقام عبَّاد الخيال.

وأما النور الإحاطي الذي يستغرق جميع الأنوار فيه، فهو نور نبيّنا عليه الصلاة والسلام، وقد غلط فيه بعض من ظن أنه نور الله المحيط بكل شيء يشاهد ذلك النور الإحاطي سيَّارٌ ترقى عن جميع مراتب الأنوار لكنَّه بعدُ ذو شعور وإدراك، فإذا أفنى ذلك وأخذ وجوده فذلك علامة تجلي الحق تعالى بذاته، وهذا هو الفناء في الله، ذهب الوجود والشهود، وسقطت المعرفة، وصحَّ ما قيل لا يعرف الله إلا الله، ولا يشاهد الله إلا الله، وتحقق معنى قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18] وَحَّدَ ذاتَهُ بذاتِهِ. هذا هو التوحيد الحقيقي الذي أشار إليه الشيخ عبد الله الأنصاري في الأبيات الثلاثة في كتاب منازل السائرين، وهو مقام جمع الجمع باصطلاح الصوفية.

ثم إذا أراد الحق سبحانه بعبد دوامَ سلب الوجود لا يرده إلى الوجود المنشأ ثانياً طوبى له، وإذا أراد أن يرده إلى الوجود ينشئهُ من فضله وجوداً نورانياً لا ينحجب به عن مشاهدة الوحدة في الكثرة، ويرى بالله ويسمع بالله وتصير تصرفاته بالله، وهذا هو مقام البقاء بالله المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن ربه تعالى: «**لا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوفل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به**»[1] إلى آخر الحديث.

ثم إن الحقيقة الإنسانية الجامعة لجميع فيوض الأسماء والصفات المحتجبة بحجب أستار الكائنات من الأنوار والظلمات والعلويات والسفليات، المودعة فيها نور من فيض نور الحق، الذي أشار إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «**أنا من الله والمؤمنون مني**»[2] أي أنا من فيض نور الله، والمؤمنون من فيض نوري. إذا أقبلت بِكُنْهِ همتها على مولاها، واستعملت جميع قواها، تاركة هواها في مراضي الحق ومحابِّه، وانقَطَعتْ إلى الله وأعرضت عمَّا سواه، ولازمت كلمة لا إله إلا الله، المتضمنة لنفي

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6137) [5/ 2384] ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة. . ، حديث رقم (347) [2/ 58] ورواه غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

الكثرة وإثبات الوحدة بهمة عليَّة مشمئزة من التعلق بشيء حادث متعلق برب كريم قديم، فتتنور وتزول ظلماتها، ففى التزام الفرائض والسنن نزول ظلماتها التي تعلقت بها سابقاً، وفي التزام الآداب والأخلاق والأذكار تندفع عنها ظلماتها العارضة لها، وأي شيء تخلص منها يريها في عالَمِهِ، وأي حالة تعرض لها تفهم بوقائعه.

وثانياً بوجْدانِهِ وذوقه وحاله، وقد سبق انه لا يتصرف فيها بل يعرضها على شيخه، وإن أراد أن يفهم من الضوابط الجامعة، فليعلم أن نار الذكر إذا سرت بواسطة الوصول إلى الدم الذي في وسط القلب، وبواسطة البخار اللطيف الذي فوق الدم إلى الأعضاء تحرق كلّ ما لا يليق بجناب المذكور، ونوره الذي يتبع النار يصفى ويجلى على ما يليق بجنابه، فنورُ النار والنور أولاً في تغيير الصفات الذميمة الغالبة على الذاكر وتبديلها بالصفات الحميدة، ويرى تلك الصفات الذميمة في صُوَرِ الحيوانات التي غلبت على طبعها تلك الصفات، أو في صورة أشخاص غلبت عليهم بتكرر العادات، فيرى الشهوة الفرجية بصورة الحمار، فإذا كان يؤذيه أو يهرب منه أو سميناً لا يتمكن من تحميله دلَّ على غلبة شهوة الفرج على السالك فعليه بإدامة السهر والصوم وتقليل الغذاء وأكل ما يطفىء نار الشهوة، وإن رأى أنه مات أو حَمَّله أحمالاً ثقالاً ويمشيه دلّ على غلبته على الشهوة، ويرى الشهوة البطنية في صورة الغنم، ويرى القوة الغضبية في صورة كلب أسود أو دبّ أو نار مشتعلة بجمرة لا موقدة، ويرى الحرص في صورة النمل كبارها إذا كانت قوية تؤذيه وصغارها صغيرة، وإن رأى أنه يدركها ويميتها فهو يتخلص من شرّها، ويرى البخل في صورة فأرة في الإيذاء والكبر والضعف والموت، ويرى الشره في صورة القردة والكلب الأبلق، ويرى الكبر في صورة النمر، ويرى إرادة الاستعلاء، وأن يكون مطاعاً في قومه في صورة الأسد، ويرى الحسد في صورة الذئب، ويرى زيادة الغيظ في صورة الفهد، ويرى المكر والتزوير في صورة ثعلب، ويرى السير في البساتين بلا قصد عمارة ولا زراعة بصورة ابن آوى، ويرى الغفلة بصورة أرنب، ويرى الاستبداد بالرأي وعدم الالتفات إلى قول أحدٍ بصورة ثور ويرى كثرة الأكل في هذه الصور أيضاً، ويرى الحقد في

صورة جمل إذا كان يدوسه أو بعضه أو يخاف منه، فإن رأى أنه يحمّله وهو مطيعٌ له دَلّ على تسليم نفسه وتحمُّل أعباء الطريق، وإن رأى أنه عُريانٌ أحمرُ اللون أسود العينين وهو مستأنس به دلَّ على شوقه ووجده، ويرَى العداوة في صورة حية، وإيذاء الناس باللسان في صورة عقرب، والخواطر الشيطانية بصورة زنبور أحمر كبير، وصفات الطبيعة التي تنفر منها الطباع بصورة ضفدع وسامّ أبرص. وليعتبر غالبيتها ومغلوبيتها بما هذا شأنه.

وقس على هذا سائر الحيوانات بالنسبة إلى صفاتها غالبة أو مغلوبة، فإذا وجدتها غالبة فعليك بالعلاج بالضد.

واعلم أن النفس الإنسانية لما كانت هي الروح الحيواني فلها من كل حيوان صفة، و كأنّ جميع الحيوانات دُقَّت في هاونٍ وخُلِقَت منها، فهي إذا تخلت عن صفة تلبَّست بأخرى.

فاستقم حتى تتبدَّل جميع صفاتها الحيوانية بالصفات الملكية، ثم إذا صفت بعد هذه الصفات وتبدلت وسرى نور الذكر إلى القلب، ترى أن القنديل قد أوقِدَ أو صفي أو أزيل عنه الوسخ. وبالجملة كلّ ما يتعلق بالقنديل والزجاجة والمسجد والنور والسراج فهو متعلق بحال القلب. ثم إذا رأى السماء ذات الكواكب فهو أيضاً قلبه ينوّر بنور الذكر، وإذا رأى القمر فهو قلبه، ويعتبر الصفا وعدمه من ضياء القمر وعدمه، وإذا رأى الشمس فهو في صورة روحه، وإذا رأى الزهرة قبال عينيه من بعيد صافياً فهو كوكب سره، وقس على هذا.

وإذا سرى الذكر إلى العناصر فتارة يرى أنه يمشي في البرّية أو يسبحُ في البحر أو يطير في الهواء أو يدخل النار، وإذا رأى أنه يدخل الحمام ويزيل الوسخ دلّ على أنه يصفي قلبه ويزيل الوسخ والدرن عنه، وإذا رأى أنه دخل السوق دلَّ على أنه يعمل بمقتضى الطبيعة، وإذا رأى أنه دخل الدار التي نشأ بها دلّ على ظهور طبيعته القديمة، فإن رآها مزينةً دَلَّ على حسن حاله، وإن رآها غير مفروشة دلَّ على عدم اهتمامه بإصلاح طبعه ونفسه، وإن رأى أن الماء يدخل فيها دلّ على سراية العلم في الطبع، وإن رأى أنه دخل بستاناً فإن

كانت أشجاره مثمرة كالتفاح والرمان فذلك بستان قلبه المعمور إذا كان ثمره ناضجًا، وإن كانت أشجاره تزهر دلّ على ابتداء عمارته وإصلاحه، وإن رأى أن أشجاره غير مثمرة مثل الخلاف والطرفاء دل على رجوعه إلى عالم المساهلة والرخص الطبيعية، وإن رأى انه يسافر إلى الحجاز دل على أنه متوجه إلى الله، وإن رأى أنه سافر إلى بيت المقدس دل على أنه في إصلاح حاله، وإن رأى أنه في سفينة تجري في البحر دل على أنه متمسك بالشريعة سائر في الطريقة، وإن رأى أنه على جبل عال شاهق تتفجر منه العيون فذلك جبل قلبه، وإن رأى أنه يدخل دهاليز ضيقة فتلك دهاليز وجوده، وإن رأى بئرا عميقاً فيها الماء فهي بئر وجوده، وإن رأى أنه يستقي بدلو من بئرٍ فذلك قلبه.

وإن رأى أمَّه دلّ على رؤيته نفسه، فإن كانت تشفق عليه دلَّ على صلاح النفس، وعكسُها عكسها، وإن رأى أباه فقد نفسه المهتمة بأمر المعاش، وكذا الخالة والعمة والعم؛ فالأقارب إن كانت من قبل الأم فهو القوة النفسية الشهوية، ومن كان من قبل الأب فهو من القوى المدبرة في أمر المعيشة، وقد يرى الشيخ أيضاً في صورة الأب وخَدَمة القوى ترى في صورة العبيد والجواري، والقوة العاقلةُ تُرَى في صورة القاضي، والملكيّة ترى في صورة الأتراك الأجواد أو صور الخصيان وفي صور الإماء والملاح الحسان للطافتهم.

والجن تُرى في صورة القط وبني آدم على اختلاف الأصناف، ويرى الإنسان روحه في صورة أمرد صبيحٍ لطيفٍ، وقلبه إذا تولد من الطبع في صورة الطفل الرضيع، وقد يرى طبعه أيضًا في هذه الصورة، ويرى صلاح حاله في صورة الملح، وفساد حاله في صورة الوقوع في الوحل والطين، وإن رأى أنه حافياً ولا يجد مداسه فهو في خبط.

وإن رأى أنه عريان يحتمل أن يكون صورة تجرده، ويحتمل أن يكون عدم صورة احترازه عما ينقص من إيمانه تفرقاً بحسب موازنته بما يجد من حاله.

وإن رأى أنه يأكل طعاماً كاللحم والخبز، والأطعمة كلها أغذيةٌ معنويةٌ تقوى بها القلب، وأخصها اللحم والخبز المطبوخ أو المشويّ والعسل واللبن.

وأما اللحم النيء فيدل على ظهور البشرية، ويرى العلوم اللدنيّة أيضاً في صورة العسل، ويرى الفطرة الأصلية في صورة اللبن أيضاً؛ والفواكه والثمار من قبيل التقوية، وأخصها العنب والتمر والتفاح والرمان والبطيخ الأصفر صورة العلم الكسبي، وكذا الجوز والبطيخ الأخضر صورة المعارف، فافهم الآن خصوصيات الأطعمة والأشربة والفواكه والثمار، وقس الباقي عليها.

**وأما الملابس** فنظافتها وصفاؤها يدل على صفاء حال القلب والنفس، وكدرُها على العكس، وإذا رأى أن خرقته ضاعت أو سرقت ينبغي أن يتدارك حاله فإنها مصيبة عظيمة أصابته بانهماكه في الشهوات واستيلاء الشيطان عليه، وإن رأى أنه مريض دلّ على أن قلبه مرض لارتكاب بعض الخصال المذمومة، وإن رأى أنه مات أو واحدًا ممن يحبُّه دلَّ على أن نفسه صارت مغلوبة وصارت كالميت، لكن يعلم أنها إذا وجدت هواها تحيا مرة أخرى فيا ليتها تموت مرة واحدة، هي حيَّة إذا أصابها برد تجرَّدت، وإذا أصابها حرّ الشمس تحركت.

ولا ينبغي للسالك أن يتساهل في أمر النفس؛ فإنه إذا غفل عن ضبطها عادت إلى طبعها، فعليه أن يلاحظ ما صدر عنه بمقتضى النفس دائمًا، ولا يأمن مكرها وخداعها؛ فإنها في حركة واحدة تعمل بهواها، أو كلمة واحدة تعمل بقول، أو بإظهار فضيلة من فضائلها مرة واحدة.

ولعَمري معرفة مكائد النفس وخداعاتها ودسائسها أنفع للمريد من معرفة خيالاتها، ولكن أرى تطلع الأصحاب إلى معرفة الوقائع قويًا فأداريهم بتفصيل البيان وأرخي لهم العنان لعلهم يستقيمون ليبلغوا إلى العرفان.

ثم اعلم أن الدنيا تُرى في صورة العجوز الشوهاء، وقد ترى في صورة شابة وخادمة تلتمس الخدمة، وهذا إذا تركها السالك بالكلية وقنع بلُقيمات وخريقة[1]، فما تقدر أن يخدع بالمعشوقية فتريد أن يخدع بالخادمية، فلا ينبغي أن يلتفت إليها ولا إلى خدمتها.

---

(1) الرقعة يرقع بها الثوب. (المحيط في اللغة للصاحب بن عباد التفري).

وعلى السالك أن يغلق باب الاختلاط بأبناء الدنيا وعشاقها وكلابها.

والضرر المستمر أن يلتفت الشيخ إلى ضبط أمور المريدين من جهة المأكول والمشروب والملبس، فيحتاج إلى ضبط المزارع والأسباب. فيميل إلى الدنيا بعد الزهادة، وتكدر عليه صفو العبادة، فإذا رأى نفسه ملوث الثوب بها أو اليد أو الرجل فليعلم أنه مال إلى الدنيا، وإذا رأى أنه دخل الجنة يعلم أنه دخل عالم القلب والجمع عن التفرقة، وإذا رأى جهنم يعلم أنه هوى إلى النفس واتبع هواها؛ وينبغي أن يعلم أن كل آدمي مجموعه من جميع العوالم، فما في العوالم شيء إلا وفيه شيء من ذلك، فهو يتخلص شيئًا فشيئًا كما قلنا وقت سلوكه وعبوره عن كل ما كان متعلقاً به من العوالم، فيفهم حاله ويعرف ترقياته وتنزلاته وسائر حالاته من واقعاته ومن حركات قلبه ونفسه وسكناتهما.

ومن كان فطنًا حاضر القلب فيما يصدر عنه حين مراعاة حاله مع الله في الظاهر والباطن يفهم جميع وقائعه من وجْدانه وحالاته ولا يحتاج أن يُفَصَّل له كلُّ شيء، فهذا المقدار كافٍ.

فتمسَّك أيها الطالب بهذه الوصايا، وأيقن بفضل الله عليك بالمواهب والعطايا، واقنع من بيان الوقائع بهذا المقدار، ولا تطلب على التفضيل شرح الأنوار.

وتنبَّه لما قد قلت لك: إن الحق سبحانه منزَّه ومقدَّس عن جميع ما ينكشف على الأسرار فضلًا عما يطرأ على الخيال من الأنوار.

واحفظ بيتي القلبي، وعلق همتك بالفناء إن كنت طالب الوصل واللقاء.

واعلم أنك ما دمت متمنيًا وقوع شيء ما لك فأنت سالك في طريق الفناء الأول، فجرد همتك على المتمنيات من الكشوفات الكونية والكرامات، فإنها مواقف لطلاب الحقائق الإلَهية، وموانع للصاعدين على أعالي مدارج المعارج الأبدية والمَعارف الحقيقيّة السرمدية، واتبع بظاهرك وباطنك وسِرّكَ حبيب الله المصطفى، الذي ما زاغ البصر وما طغى عن مشاهدة ربه العلي الأعلى، ولم يلتفت إلى ما عرض عليه من الآخرة والأولى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى متبعيه المنتمين بالصدق إليه. ترزق من تلك الإفاضات العليَّة ما تستعد بها إلى

الترقيات المستمرة الأبدية.

والله هو الكريم المنان المتفضل بالجود والإحسان.

والملتمس منك أن لا تنسانا من الدعاء في أوقات صفائك.

واجعل هذه الوصايا نصب عينيك، وتأمَّل فيها واحدة واحدة، واعمل أنت على الترتيب، فإني ما كتبت على التبويب، وأنت قد شاهدت حالي وتَوزع بالي.

وأسأل الله توفيق العمل بمقتضاها.

وافق الانتهاء من ذلك في أوائل رجب سنة ست وعشرين وألف، والحمد لله رب العالمين.

سوَّدَها العبد الفقير إلى مولاه الغني، عبد الحي موسى عمر القيراطي الشافعي، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ومحبيه، وذلك في عصر يوم الجمعة الغراء لستّ خلون من شهر محرم الحرام افتتاح عام 1276، ست وسبعين ومائتين وألف، من هجرة من له العز والشرف، محمد صلى الله عليه وسلم.

اللَّهم انفع بها كاتبها وناسخها والناظر فيها آمين.

**تمت**

**الجوهرة الفاخرة**

**في بيان أصل الطريق إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة**

**ويليها:**

**شرح حديث السنة المحمدية**